أصول المارونية السياسية

الشيخ أسعد جرمانوس

وجذور الحريات اللبنانية

«المارونية السياسية
كلمة فخر أريد بها قهر»





أصول المارونية السياسية

الشيخ أسعد جرمانوس

أصول المارونية السياسية

الشيخ أسعد جرمانوس

وجذور الحريات اللبنانية

«المارونية

كلمة فخر أريد بها قهر»



منشورات دار المراد
الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٦

الاخراج: جان قرطباوي

الطباعة:
آيس ديزاين اند برنتنغ
بيروت

توضيح تمهيديّ

لم يكن لمار مارون أيّ علاقة بالمارونيّة السياسيّة وحتى بجبل لبنان، فهو «راهبٌ وقدّيسٌ» كما قال عنه معاصره القدّيس يوحنّا فم الذهب. وُلِدَ وعاشَ وماتَ في منطقة كورش من أعمال أنطاكية.

لا نعلمُ تاريخ ولادته، ويُقدّر أنه توفّي عام ٤١٠ م، أي قبل ٢٠٠ سنة تقريبًا من دخول المارونيّة الى جبل لبنان.

عاشَ زاهدًا متقشّفًا على قمّة جبلٍ بجوار انطاكية، ولم يأتِ يومًا إلى لبنان.

تَرفّع عن الشؤون «الدنيويّة» مكرسًا حياته لعبادة الله.

واستمدّت المارونيّةُ اسمَها منه.

تمهيد

عندما يُصابُ إنسانٌ بمصيبةٍ، أو يُنكَسُ بنكسةٍ، يتذكّرُ دائمًا ما جرى له ومرَّ عليه بحياته لعلّهُ يتّخذُ منه العِبَر.

وكذلكَ الشّعوب...

فمنذُ سنواتٍ وشعبنا يجتازُ مخاضًا عسيرًا، ويتساءل: هل هذا الوضعُ ظرفيٌّ أم أنّه نهايةُ لبنان؟ كما يتساءلُ، أفرادًا ومجموعاتٍ، عن المستقبل الذي يكتنفُه الغموض. وفي التاريخِ عِبرةٌ للشّعوب، ومن ماضيها تَستمدُّ مستقبلَها وتَبنيه.

وبُغيةَ استقراءِ الماضي والإفادةِ منهُ، سنُحاولُ إلقاءَ نظرةٍ على صفحاتٍ من حياةِ الشّعبِ اللبنانيّ وأهمِّ ما جرى لهُ منذُ نُشوءِ الديمقراطيّةِ اللبنانيّةِ التي هي خميرةُ الحضارة اللبنانيّة، إلى الأيّامِ العسيرة والصّعبةِ التي مرّتْ بها.

الفصل الأول

المارونيّة السياسيّة:
كلمة فخر أُريد بها قهر

تعرّضت الحضارة اللبنانيّة إلى حروب إبادةٍ ولمشاحناتٍ داخليّة دامية، لكنّها كانت تنهض دائمًا وتزدهر مجدّدًا لأنه، مهما تعدّدت الأسباب، لم يكن بالإمكان استئصال بذور الحرّيّة الفرديّة وكرامة الإنسان إلى أيّ طائفةٍ أو عِرقٍ انتمى.

وما يسمّونه «المارونيّة السياسيّة» قهرًا، هي حقيقةٌ تاريخيّة، لكنّها موضوع **فخر لا قهر**، إذ إنها أساس هذه الحرّيّة والديمقراطيّة النادرة في تاريخ هذه البقعة من الأرض. ويمكن القول إنّ أعلام المارونيّة السياسيّة ما عدا مار يوحنا ليسوا من الموارنة.

□□ البيئة الجغرافيّة والإنسانيّة للمارونيّة السياسيّة

كلُّ نظام، ولو كان ديمقراطيًّا، فُرِضَ فرضًا، يصحبه شكلٌ لامعقول من أشكال الاستبداد، والمقصود هنا «باللامعقول» هو غيابُ الناس عن فهم النظام المطبَّق عليهم.

إنّ الناس هم الذين يفرزون شكل الحكم بحسب عاداتهم وبيئاتهم، ومن ثمّ فإنّ نوع الحكم لكلّ شعبٍ يعكس مفهومه الخاص به من ضمن وضعه الخاص، وهو مفهومٌ قد لا يكون بالضرورة على مثال الديمقراطيّة النموذجيّة كما يفهمها الغرب والتي دخلت في اعتقاد البعض – حتّى من علماء الاجتماع – بأنّها المثال الأرفع بالرغم من أنّ الواقع قد تخطّى ذلك.

وعلى افتراض أن الديمقراطيّة اللبنانيّة سارت على خطٍّ متوازنٍ والديمقراطيات التي ظلّت في نطاق النظريّات، في تلك الفترة، فإنّها لم تتّخذ على الأقلّ شكلها المميّز من حيث التنظيم السياسي إلا نظرًا الى خصائص البيئة والعنصر البشريّ التي نشأت فيها.

تتميّز البيئة اللبنانية بسلسلة جبالٍ تشرف على المتوسط غربًا، وعلى البوادي العربية شرقًا.

هي على وجه التحديد بين البحر والجبل، لا تؤلف رقعةً لها مقوّمات دولةٍ كبيرةٍ، وهي منفتحةٌ على البحر وعلى الداخل معًا، وهذا ما جعلها دائمًا عرضةً لمحاولات الاستيعاب.

إلا أنّ امتداد هذه الرقعة على أكثر من ٢٥٠ كلم طولاً تقع على متونٍ وأودية، تنصبّ منها أنهرٌ تربطها بالشاطئ، يجعل من الجبل معقلاً وعر المسالك حتى يصعبَ على الغزاة الوصول إليه.

هذه المميّزات نفسها للرقعة الجبلية كانت تؤخّر أيضًا وحدة البلاد وتضرم نار التحاسد والتخاصم.

وإلى يومنا هذا يُطلق سكّان الجبل على المقلب الآخر من الوادي لقب أهل «القاطع»، ومع ذلك فأنّ هذه البلاد صارت ملجأً لكثيرٍ من الجماعات البشرية التي أمّتها هربًا من حرمانٍ أو تهجير على أمل العيش بحريّةٍ وكرامة. وعلى هذا الأساس ارتكزت **الحضارة اللبنانية** التي بُنيت على حريّة الإنسان وكرامته لأيّ فئةٍ انتمى.

هذه الحضارة هي التي صهرت هذا الشعب وجعلت له صيغةً مميزةً في محيطه الجغرافي، نابعةً من الطبيعة الجيوبولتكيّة اللبنانيّة، فلذا وإن كان لهذه الحضارة جذورٌ في ماضي البيئة الجغرافية، فإنها نمت وتطوّرت منذ أواخر القرن السابع للميلاد وفقًا لظروفٍ تاريخيّةٍ وإقليميّةٍ يمكن تحديد أصولها.

مشكلة لبنان منذ البدء هي حضارته. إذ إنّ مناخ **الحريّة**، حريّة الفرد وحريّة المجتمع التي وفّرته هذه الحضارة ببقعةٍ جغرافيّةٍ تارةً امتدت وطورًا انحسرت فجعلت من هذا البلد «الصغير بحجمه الكبير بمشاكله» على قول «مترنيخ»[1] واحةً بالغة الأهمية في محيطٍ إقليميٍّ

---

١. مترنيخ، كليمنس Metternich (١٧٧٣ – ١٨٥٩): رجل دولة نمساوي من كبار رجال السياسة في أوروبا في القرن ١٩". سفير في باريس عام ١٨٠٦. قام بدور كبير في مؤتمر ڤيينا ١٨١٥، وقاوم الحركات التحرّرية في أوروبا.



تطلّ على متونٍ وأوديةٍ تجعلُ من الجبل معقلاً ضدّ الغزاة

قلّما آمن بهذا المبدأ. وقد خاف هذا المحيط أن تمتدّ الحريّة إلى مجتمعه، فكان نصيب هذه الحضارة تاريخيًّا الحذر والكره من كلّ مجتمع استبداديّ مجاور.

أضف إلى ذلك أنّ هذه الحريّة وفّرت تطوّرًا فرديًّا نادرًا، إذ اطمأنّ الإنسان اللبنانيّ إلى نفسه وإلى أملاكه، فأسّس في هذه المنطقة الجبلية الوعرة القاحلة مجتمعًا ناميًا فكريًا واقتصاديًا لجأ إليه الكثيرون من الأقطار المجاورة.

وبوسعنا القول إنّ هذه الحضارة هي أساس الديمقراطيّة في لبنان، لكنّها ديمقراطيّة لبنانية.

ويعود فضل أصول هذه الحضارة إلى مجموعتين من البشر استقرّتا في هذه البقعة الجغرافيّة منذ القرن الثامن للميلاد وهما الموارنة والدروز.

وقد تجسّد قيام التنظيم الاجتماعي والسياسي عند الموارنة بشخص مار يوحنا مارون.

وكان ذلك بمثابة وضع حجر الأساس لقيام الدولة اللبنانيّة التي أسّسها الأمير الدرزيّ فخر الدين المعنيّ.

□□ الموارنة

كُتِب كثيرًا عن الموارنة وحيكت عنهم الأساطير الصحيحة والخياليّة. وعنهم تحدّث الكتّاب والرحّالة فتناولها بعضهم بالمديح والبعض الآخر بالتجريح.

وسعى عددٌ من المغرضين إلى جمع الوثائق لإدانتهم، فنسبوا إليهم مراسلاتٍ سريّةً، وجعلوا لهم خطًّا سياسيًّا لا محيدَ لهم عنه تكرّس بوصايا الموارنة.

نعتهم أعداؤهم في العهد الصليبيّ بأنهم جماعة مشاغبة منعزلة، وفي العهد المملوكيّ لقّبوهم بعملاء الفرنجة، وفي العهد العثمانيّ بجواسيس روما.

وكان لهم الحظّ نفسه مع من يدّعون محالفتهم من الامبراطوريّة البيزنطيّة الى الصليبيّين إلى الانتداب الفرنسي كما سنرى، حتى أنّ الآباء اليسوعيّين شكّكوا في صحّة إيمانهم وذهب بهم الشك إلى وصمهم بالهرطقة.

وكذلك أُثيرت قضيّة الموارنة وقضيّة المردة، وطال الجدلُ حولَ أصل الموارنة وأصل المردة. كلّ ذلك دليلٌ على ما تستحقّه قضيتهم من اهتمامٍ واعتبارٍ، ومنذ البدء برزت أهميّة هذه المجموعة من البشر على الصعيدَين اللبنانيّ والعالميّ ولا تزال حتى الآن تلعب دورًا نافذًا.

وفيما نتجنّب استعادة الجدل، سنحاول إلقاء بعض الأضواء حول نشأتهم وتنظيمهم وبالتالي قضيّتهم.

❑ مار مارون

أخذ الموارنة اسمهم من «راهب وكاهن قدّيس» كما وصفه القدّيس يوحنا الذهبيّ الفم. هذا الراهب الكاهن اسمه مارون. عاش ومات في سوريا العليا، تألّب حوله، في حياته، عددٌ وافرٌ من التلامذة وشادوا، بعد وفاته، قرب أفاميا[٢]، في سوريا الوسطى، ديرًا طارت شهرته وعرفه الناس باسم «الدير الشرقي» أو «بيت مارون» الذي لم يلبث أن احتلّ مكانةً دينيّةً بارزةً في المنطقة كلها.

تميّزت سيرة مؤسّسي الدير بالصلوات، كغيرهم من الرهبان، وشاركوا في الخصومات الدينيّة الدائرة آنذاك، وكان لموقفهم المؤيّد لسلطة البابا أهميّةٌ عبر التاريخ وأثرٌ عميقٌ في علاقات الموارنة خصوصًا ولبنان عمومًا بروما، ومن ثمّ بسائر العالم الغربيّ.

❑ دخول المارونيّة إلى لبنان

على الرغم من انتشار المسيحيّة في جميع أنحاء العالم الرومانيّ، وقد أصبحت مع قسطنطين الكبير وخلفائه من الأباطرة دين الدولة، فقد ظلّ سكان جرود جبل لبنان متمسّكين بدينهم. يعبدون آلهاتهم القديمة، خصوصًا عشتروت[٣].

٢. أفاميا: مدينة قديمة في سورية على نهر العاصي. اشتهرت بالمعاهدة التي عُقدت فيها عام ١٨٨ ق.م. بين أنطيوخس ٣ السلوقيّ والرومان واعترفت بسيادة روما على آسيا الصغرى. موقعها اليوم في قلعة المضيق.

٣. عشتروت إلهة الحبّ والخصب والجمال عند الفينيقيّين، أعادت الحياة الى أدونيس بعد أن قتله خنزيرٌ برّيّ. هي عشتار عند سكّان ما بين النهرين وأفروديت اليونان وڤينوس الرومان.

وكان لهذه الربّة هيكلٌ في أفقا يشكّل المقام الأعلى لهم.

ولطالما واجهوا بعنادٍ وصمودٍ حملاتٍ بيزنطيّةً تأديبيّةً لم تنجح في ردّهم عن معتقدهم.

أمّا اعتناقهم المسيحيّة فيما بعد، فكان على يد رهبان وطنيّين مثلهم.

وكان هؤلاء الرهبان من تلامذة دير مارون. وقد عُرف منهم بالتحديد ابراهيم القورشيّ الذي بشّر منطقة العاقورة.

وتلامذة مار سمعان العمودي[٤] الذين بشّروا منطقة بشري.

وهكذا، وإن كان سكان هذه الجبال قد اعتنقوا المسيحية، فقد دخلوا إليها بواسطة طائفة ميّزتهم عن سائر طوائف الامبراطوريّة البيزنطيّة.

كما كانت «تتميّز» حياتهم القروية، كونهم رعاةَ ماعزٍ في الصرود، عن حياة سكان السهول المجاورة.

وظلّ موارنة جبل لبنان في العهد البيزنطيّ غائبين عما يجري من الخصومات اللاهوتيّة في سائر أنحاء الإمبراطوريّة، متفرّغين كليًّا لكسب عيشهم اليوميّ العسير في أرضهم الصخريّة.

وكذلك استمرّ وضعهم في بدء الفتح العربيّ. وكان موارنة المدن، مثل سائر المسيحيّين من أصحاب المذاهب في سوريا ومصر، قد رحّبوا بالفاتح العربيّ على أنه، بصرف النظر عن الدين، أخٌ سامي حرّر إخوانًا له ساميّين من جور الرومان والبيزنطيّين.

---

٤. سمعان العمودي الأكبر (نحو ٣٨٩ – ٤٥٩): قدّيس وُلد في سيسان. تنسّك في جبل سمعان قرب حلب، وعاش ٣٧ عامًا على عمود.

لكن عندما استقرّت الدولة الأموية في الشام، أرادت فرضَ الجزية ونظام **أهل الذمّة** على موارنة جبل لبنان فكان الرفض ومن ثمّ الحرب. وكانت بيزنطية عام ٦٦٩ م. تخوض حربًا قاتلة مع معاوية[٥].

وكانت جيوش العرب تدقّ أبواب القسطنطيّة، فاغتنمت الدولة البيزنطيّة فرصةَ هذه الثورة في لبنان، وأنزلت على الشاطئ اللبناني بين جبيل والبترون جيشًا من المردة.

❑ المردة

أوّل من أتى على ذكر المردة هو **هيرودوت**[٦] «أب التاريخ». عدّهم من بين القبائل الآريّة، وحدّد مواقعهم جنوب بحر قزوين. دخلوا التاريخ في جوٍّ من الصخب عندما احتلّوا قلعة «سردين» عام ٥٤٦ قبل الميلاد ومكّنوا بذلك **الملك** كسرى من القضاء على مملكة ليديا.

حاربوا الاسكندر وحاربوا الفرس. ويسترسل المؤرّخ «**تاسيت**»[٧] بوصف دورهم البارز في المعركة التي خاضوها بقيادة القائد الرومانيّ **فاليريان** ضد البارتيّين وهم الفرس.

---

٥. معاوية بن أبي سفيان (ت ٥٦٠/٦٨٠ م): مؤسّس السلالة الأمويّة. أصبح خليفة عام ٦٦١ م. جعل عاصمته دمشق، واشتهر بدهائه وحسن سياسته.

٦. هيرودوت Hêrodotos (٤٨٤؟ – ٤٢٥؟ ق.م.): مؤرّخ ورحّالة يونانيّ زار العالم المعروف آنذاك لا سيّما العراق وفينيقيا ومصر. له «تاريخ» هو من أهمّ المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها.

٧. تاسيت Tacite (٥٥م.؟ – ١٢٠ م.): مؤرّخ لاتيني وُلد في روما. له «حوليات» و«تواريخ».

حصلوا منذ القرن الأول الميلاديّ على المواطنيّة الرومانيّة، وتنصّروا في عهد مُبكرٍ، وكانت حاضرتهم الأولى مدينة «نصّيبين»[٨] في الجزيرة السورية – موزوبوتاميا العليا.

في العام ٣٦٣ قُتل جوليان الرسول في معركة ضد البارتيّين، فأعلن الجيش جوفيان امبراطورًا خليفةً له. رأى الامبراطور الجديد، توطيدًا للسلطة، أن يستعجل رجوعه الى العاصمة، فعقد للغاية هذه، صلحًا أو ما يشبه استلامًا للبارتيّين، وتنازل لهم عن مدينة «مردا» وقلعة نصّيبين، وأخذ على نفسه تشتيت «المردة» في أنحاء الامبراطورية.

ولكنّهم ظلّوا متماسكين حول مهمّتهم الاساسية وهي القتال، باعتبارهم مقاتلين متميّزين عن المجموعات الاخرى.

وكان لقائدهم المرتبة الرابعة عشرة في الأمبراطوريّة البيزنطيّة كافةً.

وكان مسكنهم في جبال اللكام (أمانوس Amanus)[٩] في مدينةٍ لهم تدعى جُرجومة ومنها لُقِّب المردة بالجراجمة.

مما لا شكّ فيه، مهما طال الجدل، انه منذ القرن السابع بعد المسيح أصبح الموارنة والمردة والجراجمة في جبل لبنان مجموعةً واحدةً من البشر، إن لم نقل «أمّة» واحدة لها ميزتها.

وهذا ما أجمع عليه المؤرخون من البلاذريّ الى المسعوديّ الى ياقوت

---

٨. نصّيبين: مدينة قديمة في تركيا ما بين النهرين على الحدود السورية. كانت مركز الآداب السريانية في القرن ١٣. ازدهرت فيها مدرسة نسطورية في القرن ٦. احتلّها العرب عام ٦٣٩. انتصر فيها ابراهيم باشا على العثمانيين عام ١٨٣٩.

٩. أمانوس: سلسلة جبال تركية شرقيّ خليج الاسكندرونة، تُشرف على سهل كيليكية، هي اليوم قِزِل داغ. تعلو ٢٢٦٠ مترًا وتنتشر فيها الغابات الكثيفة.

في «معجم البلدان»، والمستشرقون من نيلدك Neeldek إلى انكتيل دي برون Anquetil Dupperron. ولعلّ أكبر شهادة معطاة بهذه الامة ما قاله المؤرّخ البريطاني جيبون[١٠]: «لقد عمّرت هذه الأمّة المحتشمة أكثر مما عمّرت الأمبراطورية القسطنطينية التي حاولت ابادتها».

☐ المردة والفتح العربيّ

مما لا شكّ فيه أنه عندما اجتاح الفتح العربيّ الشرق، استقبله المردة ببعض الحماس والتحفّظ معًا، وقد قال المؤرّخ الشهير أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذريّ بمؤلّفه «كتاب فتوح البلدان»، والذي عاش في الجيل الثاني للهجرة، أي في العصر الذهبي للإسلام في أيام الخليفة المأمون هارون الرشيد، ما يلي:

«لما قدم أبو عبيده انطاكية ثانيةً، ولّى عليها حبيب بن مسلمة الفهري فصالح أهل جرجومة على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن يأخذوا أسلاب من يقتلون من عدّو المسلمين إذا حضروا معهم حربًا في مغازيهم».

ثمّ قال: «وكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرّةً، وبعد حين أخرى يكاتبون الروم ويمالقونهم».

إذًا، حدّد المردة سياستهم منذ بدء تاريخ الفتح العربيّ، وهي سياسة استقلالية دون تبعية لا للعرب ولا للروم. وعندما انتقلوا الى جبل لبنان

---

١٠. جيبون، ادوارد Gibbon (١٧٣٧ – ١٧٩٤): مؤرّخ انكليزي وردت في مجلّده الخامس عشر من مؤلّفه «انحطاط الامبراطورية الرومانية وسقوطها» هذه الشهادة.

وجدوا المناخ الجغرافيّ والبيئة التحتيّة الملائمة لهذا الوضع عند الموارنة.
فلماذا تبع المردة المذهب المارونيّ في الجبل؟

يجيب المؤرّخ الخوري بطرس ضو قائلاً: «إنّ موطنهم الأصلي كان مجاورًا لموطن مار مارون (كورش) ولعلّهم قبل أن ينتقلوا إلى الجبل كانوا موارنة».

❑ حروب المردة والعرب

عندما وصل جيش العرب إلى أبواب القسطنطنية أنزل الأسطول البيزنطيّ جيشًا من المردة على الشواطئ اللبنانيّة بين جبيل والبترون كما أوردنا. وكان سكان الجبل من الموارنة في حالة تمرّدٍ على الدولة الأمويّة لرفضهم دفع الجزية.

وكان هدف الإنزال تهديدَ طريق الشام من مسالك جبل لبنان لعرقلة التقدّم العربيّ نحو القسطنطنيّة، وهكذا كان، فقد أرسل معاوية الروم وعقد معهم الصلح الشهير لمدة ثلاثين سنة.

وكانت فترة راحةٍ وطمأنينةٍ في جبل لبنان وعطفٍ من الخليفة معاوية على الموارنة.

حتى إنّه في عام ٦٥٩ م، على أثر خلافٍ بين الموارنة واليعاقبة، احتكم الفريقان إلى الخليفة الذي اتّخذ قرارًا لصالح الموارنة وغرّم اليعاقبة بعشرين ألف دينار. وبالرغم من ذلك كانت القسطنطينيّة تحتفظ بنفوذٍ كبير عند الموارنة، إن لم نقل بسيطرةٍ غير مباشرةٍ بواسطة ما يسمّيهم المؤرّخون أمراء المردة يوسف ويوحنا والياس وكسرى الذي تولّى على الداخلة فسمّيت باسمه كسروان.

وكان ملوك الروم، على أمل استرداد سوريا، يحرّضون المردة على شنّ غاراتٍ من جبال لبنان على المناطق الواقعة تحت سيطرة الخلافة الأمويّة كلّما اقتضت سياستهم ذلك.

❑ حروب المردة والبيزنطيّين

عام ٦٨٥ م. اعتلى العرش البيزنطيّ القيصر **يوستينيانُس الثاني** الملقّب فيما بعد «**بالأخرم**»، وكان له من العمر ست عشرة سنة، وكان مستبدًّا برأيه، متشبّثًا بتفوّقه على جميع بني البشر.

ونظرًا للمشاكل التي كان يلاقيها في البلقان، ولا سيّما في منطقة البلغار، قرّر تجديد المعاهدة مع الخليفة عبد الملك بن مروان[١١].

وكان لعبد الملك مشاكله الداخلية العديدة مع عبد الله بن الزبير وغيره.

وكان وجود المردة وغزواتهم في الجبل، نظرًا لقربهم من الشام مركز الخلافة، من أهمّ هذه المشاكل.

فتمّ الاتفاق بين القيصر البيزنطيّ والخليفة الأمويّ على **معاهدةٍ جديدةٍ** تعهّد بموجبها عبد الملك أن يدفع للقيصر كلّ يوم ألف دينار ومملوكًا وجوادًا شرطَ أن يتعهّد القيصر سريًّا بجلاء عسكر المردة من

---

١١. عبد الملك بن مروان (٦٤٦ م – ٧٠٥ م): الخليفة الأمويّ الخامس. وحّد الامبراطوريّة بعد أن قضى على مُصعب بن الزبير وأخيه عبدالله عام ٦٩٢. حارب الخوارج وقمع ثورة عبد الرحمن بن الأشعث. أنشأ البريد. عرّبَ دواوين الدولة وصكّ النقود الذهبيّة.

لبنان. وأمر يوستينيانس المردة بالجلاء، فأطاع الأوامر اثنا عشر ألفًا منهم، ولكنّ قسمًا كبيرًا كان قد انصهر في المجتمع المارونيّ ورفض الإذعان للأوامر القيصريّة.

▢ كمين قبّ الياس

جهّز القيصر جيشًا وسيّره إلى البقاع مشيعًا أنها حملة عسكريّة تستهدف العرب. وكان قيصر الروم قد حمّل قائد الحملة البيزنطيّة رسالةً إلى «أمير لبنان» يوحنا، وهو أمير المردة، مع هدايا سنية، وقد طلب القيصر سرًّا من قائد الحملة أن يقتل هذا الأمير.

عند بلوغ الروم البقاع، مضى قائد الروم إلى الأمير يوحنا بنفرٍ قليلٍ إخفاءً لغايته، وقابله في قبّ الياس، وسلّمه الرسالة والهدايا. فاستقبله الأمير يوحنا بالترحاب، وأخذ قائد الروم يستشيره في محاربة العرب طالبًا المساعدة على قتالهم. وأثناء اجتماعهم، ربّما على مائدة الطعام، وثب عسكر الروم على الأمير يوحنا وقتلوه.

▢ انتخاب بطريرك وقائد

على أثر هذه الحادثة برز تيّارٌ مارونيٌّ ساخطٌ على القيصر، رفض الخضوع لبيزنطية.

وتجسّد هذا الرفض بشخصيّة مار يوحنا مارون الذي أكدت التقاليد أولاً، والتاريخ من بعدها، أنه قائد المقاومة والمنظّم الأول للمجتمع المارونيّ.

انتُخب مار يوحنا مارون بطريركًا عام ٦٨٥ في قلعة سمار جبيل في بلاد البترون. وأعلن استقلاليته عن الروم، واعتبر نفسه، واعتبره شعبه، البطريرك الانطاكيّ الأصيل. وفي رأي **الدويهي** أنّ يوحنا مارون هو البطريرك الثالث والستين لكرسي انطاكية من عام ٦٨٥ حتى ٧٠٧، في حين أنه **البطريرك المارونيّ الأول**.

واتّخذ مار يوحنا مارون قلعة «سمار جبيل» في بلاد البترون مركزًا له.

تضاربت الآراء كثيرًا حول انتخابه، ولكن من الثابت أنه كان انتخابًا، أي اجتماعَ شعبٍ وأساقفةٍ وأعيانٍ، لاختيار بطريرك، وهذا ما سيركز عليه البطاركة خلفاء مار يوحنا مارون باشتراك ما يسمّى اليوم العلمانيّين مع الاكليركيّين على انتقال السلطة بالانتخاب.

ومن المؤكّد أنه استفاد من وضع كرسيّ انطاكية إذ لم يكن خاليًا، لكنّه كان منشقًا بوجود بطريركين لانطاكية، أحدهما مقيمٌ عند الروم في القسطنطينيّة والثاني في دمشق تحت سيطرة العرب.

والشيء الثابت أيضًا أنه أصبح القائد الأعلى السياسيّ والعسكريّ للموارنة بالانتخاب من شعبه وليس بالتعيين. كما أنه أفاد من الخلاف بين روما والقسطنطينيّة ليتحالف مع روما وينال منها درع التثبيت.

❑ علاقة مار يوحنا مارون بروما

كان يوستينيانُس الأخرم قد عقد في قصره مجمعًا دينيًّا وهو المجمع المعروف **بمجمع القصر**، وسنّ قوانين كنائسيّة جديدة لم يسلّم بها البابا



البطريرك المارونيّ الأوّل: مار يوحنا مارون

سرجيوس Sergius برغم الضغوط عليه ومحاولة اعتقاله. وكان من الطبيعيّ أن يتحزّب يوحنا مارون للبابا ويرفض مقرّرات مجمع القصر نظرًا لخلافه مع القسطنطينيّة. فأرسل البابا موفدًا خاصًا هو يوحنا أسقف فيلادلفيا (عمّان) ليثبّت يوحنا مارون بطريركًا على انطاكيا.

ومنذ ذلك الوقت درج خلفاء مار يوحنا مارون على طلب درع التثبيت من روما إلا «فترة العهد الصليبيّ». وكان بُعدُ روما الجغرافيّ لا يشكّل خطرًا على استقلاليتهم بينما كانت قوتها المعنويّة كافيةً لمساندتهم، إذ إنّ البابا هو خليفة رأس الكنيسة بطرس، فأصبح البطريرك المارونيّ منتخبًا من شعبه ومثبتًا من خليفة بطرس رأس كنيسة المسيح.

□ خراب دير مار مارون العاصي

استاء القيصر من عناد المردة وتحالفهم مع روما، ولتحزُّب مار يوحنا مارون مع البابا سرجيوس، فعزم على أن يرسل الى لبنان جيشًا بقيادة أكبر قوّاده لاوون ليأتي بالبطريرك يوحنا مارون مكبّلاً بالحديد الى القسطنطينيّة.

فرفض هذا الأخير ، فاستبدله القيصر بالقائدين موريق وموريقان Maurice et Mauricien، وأرسل الجيش البيزنطيّ برًّا وبحرًا إلى جبل لبنان لاستئصال الموارنة. وقد وافق الخليفة عبد الملك على هذا القرار إنقاذًا للاتفاق المعقود. وفي أواخر ربيع عام ٦٩٤ هاجمت فرقة من الجنود الروم ديرَ مار مارون على العاصي وقتلت خمسمئة راهبٍ على اعتبار أنّ هذا الدير «هو علّة هذه الحرب».

وكان هذا الديرُ عظيمًا فيه كنيسةٌ دُعيت على اسم القدّيس مار مارون، وأحاط به أكثر من ثلاثمئة صومعة، والتفّ حوله سكان قرى العاصي.

لم يكن قتل الرهبان وخراب الدير انتهاءَ الموارنة لأنّ القيادة المارونيّة كانت قد أصبحت في جبل لبنان بيد مار يوحنا مارون.

وانتقل جيش الروم الى سهول الكورة على مقربةٍ من «سمار جبيل»، وحلّ بين بلدة أميون وقرية الناووس الواقعتين في السفح الغربيّ من جبل لبنان. فقدّم لهم سكان الكورة ما يحتاجون إليه من الزاد، واعدينهم بالدخول في طاعة الملك.

توسّط أعيان الكورة مع قائد الروم ليعطيهم هدنةً كي يحملوا يوحنا مارون وقومه على الخضوع. لكنّ يوحنا مارون رفض هذا العرض، وبتاريخ ٢٦ تموز ٦٩٤م. تدفّق الموارنة بقيادته وابن اخته ابراهيم، ودارت المعركة في سهل أميون، فانكسر عسكر القسطنطينة، وقُتِل موريق ودُفن في أميون. أما موريقان فجُرح في هذه المعركة ونُقِل إلى قرية شويتا بعكار حيث توفي ودُفن فيها.

وكانت آخر محاولة للروم لاستيعاب المردة والموارنة.

☐ الموارنة والخليفة عبد الملك

قلّ مَن يروي من المؤرّخين أنّ بعد موقعة أميون تحالف الموارنة مع الشام ضد القيصر يوستينيانُس الأخرم الذي غدر بهم وحاول إبادتهم.

ولنعدْ إلى البلاذريّ: «وكان ميمون الجرجماني عبدًا لبني أمّ الحكم أخت معاوية، وانما نُسب الى الجراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم.

فبلغ عبد الملك عنه بأسه وشجاعته في حرب الروم في الجبل فسأل مواليه أن يعتقوه ففعلوا. فاستدعاه من جبل لبنان وقوّده على جماعة من قومه وصيّره بانطاكية. فغزا الطوابة مع مسلمة بن عبد الملك وهو على ألف من أهل انطاكية. فاستشهد بعد بلاءٍ حسن وموقفٍ مشهود. فغمّ عبد الملك مصابه وأغزى الروم جيشًا عظيمًا طلبًا بثأره».

وهكذا نرى أنّ المارونيّة تحالفت مع العرب للردّ على الروم الذين حاولوا إنهاء وجودها في جبل لبنان. وقد استمرّ هذا التحالف مدة الخلافة الأمويّة، وأخذ الموارنة يستقرّون في جبل لبنان برغم بقاء عددٍ منهم في حمص وحماه وشيزر ومعرّة النعمان. ومما يلفت النظر أنّ البطريركيّة المارونيّة ظلّت في بيت مارون على العاصي طوال الخلافة الأمويّة وقسمًا من الخلافة العباسيّة على الأقلّ كمركزٍ رمزيّ.

وكان الخليفة الولد بن عبد الملك[١٢] قد جدّد الصلح مع الموارنة وهو «ان لا يكرهوا أحدًا من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانيّة وعلى أن يلبسوا لباس المسلمين، ولا يؤخذ منهم أو من أولادهم ونسائهم جزية، وعلى أن يغزوا مع المسلمين فيتسلّموا أسلاب من

---

١٢. الوليد بن عبد الملك: الخليفة الأمويّ ٦ (٧٠٥ – ٧١٥ م). بلغت الدولة في عهده أوج عزّها واحتلّت جيوشه بُخارى وسمرقند والهند وطنجة والأندلس. شيّد الجامع الأمويّ في دمشق والمسجد الأقصى في القدس. أوّل من أنشأ المستشفيات.

يقتلونه من الأعداء مبارزةً وعلى أن يؤخذ من تجارتهم وأموالهم ما يُؤخذ من أموال المسلمين».

ولكنّه حصر مستفيدي هذه الشروط بموارنة جبل لبنان. وكان الأمويّون قد نقلوا إلى السواحل الفينيقية قومًا من الفرس، وحصّنوا مدن الساحل لمنع المردة من الغزو أو الاتصال بالبيزنطيّين. فأصبح جبل لبنان وخصوصًا في شماله موطنًا للموارنة متعايشًا مع محيطه برغم بعض الهزّات وأهمّها ثورة المنيطرة.

◻ ثورة المنيطرة ٧٥٩ - ٧٦٠ م.

في بدء العهد العباسيّ من زمن خلافة هارون الرشيد، طلبَ عاملُ خراج بعلبك الجزيةَ من الموارنة في جبل لبنان. وكان قد انقضى حوالى قرنٍ من الراحة والطمأنينة في الجبل.

رفض الموارنة دفع الجزية وخرجوا إلى سهل البقاع، وأحرقوا بعض القرى في بعلبك، وحاصروا القلعة.

فوجّه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عسكرًا قاتلهم وردّهم إلى الجبل، وأحرق حصن المنيطرة.

وكان لهذه الحادثة أهميّة كبرى:

أولاً: تدخَّلَ **الإمام الأوزاعي**[١٣] الشهير لصالح الموارنة، وأنّب الوالي

---

١٣. عبد الرحمن الأوزاعي (٧٠٧ - ٧٧٤ م): من أئمّة الفقهاء في الاسلام. وُلِدَ في بعلبّك وترك مذهبًا معروفًا. قبره جنوبي بيروت. له كتابا «السُّنَن» و«المسائل».

برسالةٍ طويلةٍ جاء فيها: «وأحقّ الوصايا أن تُحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ فإنه قال: من أظلم معاهدًا أو كلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه».

ثانيًا: لقد تبيّن أنّ المارونيّة، بعد قرنٍ من الراحة والاستقرار لا تزال تشكّل خطرًا على كلّ حكم استبداديّ يريد الحدّ من حرّياتها.

وظلّ الوضع متوتّرًا حتى تدخّل الخليفة هارون الرشيد، ويقول بعض مؤرخي الموارنة بناءً لطلب الامبراطورة إيراتيه في القسطنطنية. ولكن، يبدو أنّ هذا التدخل كان من الست زبيدة بناءً على طلب من الإمام الأوزاعي. ومنهم من يقول إنّ الصلح تمّ أيام الخليفة المهدي على يد طبيبه ومنجّمه تيوفيل الرهاوي الماروني.

وجدّد المعاهدة العائدة للفتح العربي مع الموارنة، وإنما أمر بإقامة الحصون والمدن في جنوب الجبل وغربه، مثلما فعل قبله معاوية، فأسكن فيها أناسًا من ايران، وذلك لمنع أيّ تمدّدٍ مارونيٍّ جديد.

ثالثًا: نجمَ عن ثورة المنيطرة في التراث المارونيّ أهميّةٌ قصوى تمحورت عن أول خلاف بين السلطة الدينيّة السياسيّة والسلطة العسكريّة، أي بين البطريرك الماروني غريغوريوس ومالك القديم مقدّم العاقورة الذي كما تقول الأسطورة حاول الاستيلاء على السلطة ففشل بعدما حرّمه البطريرك.

أخيرًا إنّ ثورة المنيطرة رسّخت في الذهنيّة المارونيّة أنّ جبل لبنان حصنٌ لها، وكلّ محاولة للامتداد خارجه بالإنفراد والتسلّط فاشلة.

وقد نجم عن حروب الموارنة في جبل لبنان منذ القرن السابع للميلاد تحديد معالم التنظيم السياسي الماروني، لأنّ مار يوحنا مارون

الذي هو رمز شعبه اعتبر أن تنظيم مجتمعه يقتضي الاتكال على نفسه لأنه محاصر من كلّ الجهات بأرضٍ وعرة وبمحيطٍ معادٍ.

ومن هنا كان التنظيم السياسيّ والاجتماعيّ الذي سنتكلّم عنه.

وقد ساعد على ربط أرضِ جبل لبنان بالشعب المارونيّ انتقالُ البطريركيّة المارونيّة نهائيًا من دير مار مارون العاصي الذي كان قد أعيد ترميمه إلى جبل لبنان.

❑ انتقال البطريركيّة المارونيّة إلى جبل لبنان

قرّر الامبراطور البيزنطيّ جان تشمقمق Tzimiscès، المعروف عند المسلمين بالدمشمق، عام ٩٧٢ م. استعادةَ بلاد الشام والأرضي المقدّسة مستفيدًا من الخلاف بين العباسيّين والفاطميّين.

فانطلق من نصّيبين عام ٩٧٤ – ٩٧٥ م. واستولى على حمص وبعلبك، وحمل إليه أهل الشام مالاً ليكفّ عن دمشق.

ونزل الباسيلوس إلى الأراضي المقدّسة فاحتلّ طبرية والناصرة وعكا، وأسقط صور وصيدا وبيروت. وقد كتب إلى ملك أرمينيا اشوط الثالث قائلاً:

«اسمع إنّ فينيقيا كافةً وفلسطين وسوريا قد حُرّروا من المسلمين وعلى الهراطقة أن يطيعوا الرومان» أي الروم.

ويبدو أنّ الكنيسة المارونيّة قد تعرّضت في سهول العاصي، خلالَ هذه الحملة، إلى مضايقة قويّة، فقرّر البطريرك يوحنا مارون الثاني إخلاء

الدير والرجوع نهائيًا إلى يانوح في جبل لبنان عام ٩٧٥، حيث كان التنظيم المارونيّ قائمًا وثابتًا منذ أيام مار يوحنا مارون.

هذا ما عزّز عند المارونيّة السياسيّة ما قلناه سابقًا إنّ جبل لبنان حصنٌ لها، ولما ترمزه من حريّة بين دار الحرب المسيحيّة ودار السلام الإسلاميّة.

الفصل الثاني

التنظيم الاجتماعيّ والسياسيّ عند الموارنة

□□ البيئة

إنّ ما وصل الينا عن التنظيم الاجتماعيّ السياسيّ لا يعدو إطار التقليد الشفهي حتى عهد الصليبيّين.

وممّا لا جدال فيه، أنّ المردة والموارنة انصهروا في بوتقةٍ واحدةٍ على الصعيد الشعبيّ، وتوزّعوا بمرور الأيام جماعاتٍ تبعًا لطبيعة الأرض المؤلّفة من جبالٍ وأوديةٍ كانت تربطها مواصلاتٌ صعبة إلا أنها غير مستحيلة.

كانت القرية تؤلّف الوحدة السكنيّة عند الجبليّين وتتحوّل أحيانًا إلى قصبةٍ في موقع يُمكنها من الدفاع عن نفسها. تلتفّ بيوتها حول كنيسة هي قلعة القرية وملجأ أهلها عند الخطر.

وللقرية الجبليّة مرافقُ أخصّها تربية المواشي وزراعة الكرمة، ثم التوت الذي دخل البلاد في فترةٍ متأخّرة.

لم تكن طبيعة الأرض المنحدرة تسمح بأكثر من ملكيّاتٍ صغيرةٍ موزّعة، تقريبًا بصورةٍ متساويةٍ. وكان القرويّون بالرغم من فقرهم النسبيّ قانعين بوضعهم الاقتصاديّ طبقًا للمثل المعروف فلاّح مكفي، سلطان مخفي، لأنّ لجوءَهم إلى الجبل كان سعيًا وراء الحريّة وليس العيش الرغيد.

وكانت هذه القوى، على الرغم من توزّعها، مشدودة العرى بتنظيمٍ موحّدٍ لسببين وجيهين هما: وحدة المذهب الدينيّ والشعور المشترك بالحاجة إلى الأمان.

إذًا، المصير الواحد هو الذي وحّد القوم وحملهم على تجاوز فرديتهم القرويّة إلى التفافٍ جامعٍ حيال تنظيمٍ عسكريٍّ سياسيٍّ متكاملٍ بقوّة، مدعومٍ اجتماعيًّا، لأنّه يعيش المناخ الدينيّ الواحد، وهذا ما يميّز السياسة بالطابع الدينيّ المدنيّ في الوسط المارونيّ، وهذه المشاركة في السياسة بين دينيّين ومدنيّين كانت متمشية مع روح العصر وظلّت حتى القرن التاسع عشر، لا يمنعها من الظهور مانعٌ كلّما تأزّمت الحال.

بقي أنّ التنظيم المارونيّ في مساره التاريخيّ استقرّ على قاعدته المثلّثة: **الفلاّح والراهب والمقاتل.**

والفلاّح فلاّح في حقله، لكن منه المقاتل ومنه الراهب، والثلاثة معًا يؤلّفون الدرع التي تصدّ سهام الاعداء.

الفلاّحون

كان فقر الأرض يحتّم على الفلاّح جهدًا فصليًّا. وكانت الأرض مشاعًا ولكلّ فلاّح أن يستأثر بملكيّةٍ صغيرةٍ من بيتٍ لسكناه ورقعةٍ صغيرةٍ للحراثة. لم يعرف الفلاّح المرابعة إلاّ مؤخّرًا في عهد الصليبيّين وقد ثار عليها، أما المشاعات فكان يستفيد الكلّ منها لأنها للجميع.

وكان نظام الملكيّة الزراعيّة فريدًا في الشرق يكرّس الملكيّة الفرديّة حتى لما نسمّيه المشاع. ويبدو أنّ هذا النظام قد أتى به المردة، وهو مشتقّ من القانون البيزنطي المعروف بـ«No Mos Georgikos» أي الناموس الزراعي ليوستينيوس قيصر، وسيكون لنا عودة الى ذلك.

أمّا المساكن فتميّزت بالنظافة والبساطة، أثاثها حصائر محبوكة بالقشّ، وبلاسات منسوجة بوبر الماعز. فرشهم نادرة وآنيتهم قدر وصندوق خشبيّ لحفظ الكثير من الأشياء. وكانت بيوت الوجهاء أيضًا على البساطة نفسها.

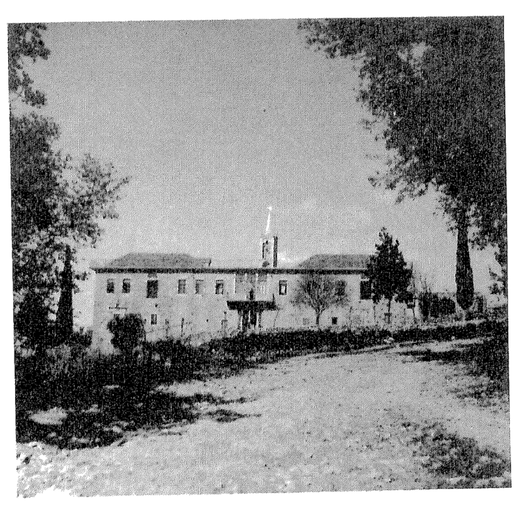
وكان الناس يَعون أنّ هذه الضآلة من العيش، كانت ثمنًا لحرّيتهم الغالية.

وكانوا يلتفّون حول الكنيسة القلعة التي كانت ركيزةَ حياتهم الدينيّة. والدنيويّة. فإذا أنذرهم جرسها بالخطر، بادروا الى حمل السلاح والتجمّع بساحتها. وساحة الكنيسة هي حتى يومنا هذا، مجلس حكومة القرية، فيها يتبادلون الآراء ومنها تصدر القرارات بالمشورة بعد المناقشة الحرّة، فكانت نواة الديمقراطيّة الصحيحة على الطريقة اللبنانيّة.

وهنا تبدو أوّل مفارقة في التنظيم الاجتماعي الماروني، أي أنّ انتماء الفرد لم يكن لعشيرة انما لبلدة مهما كبرت أو صغرت.

لذلك نرى أنّ اللّقب عند القوم يتجاوز اسم العائلة الى اسم البلدة: العاقوري، التنوري، الرشاني الخ... وخصوصًا عند الوجهاء، ولا تزال الرهبنة اللبنانيّة حتى الآن تستعمل لرهبانها هذا النعت.

ولكن هذه القرى برغم فرديّتها كانت مرتبطةً بتنظيمٍ سياسيٍّ اجتماعيٍّ دينيٍّ اتّخذ شكل الهرم.



يدقّ جرس الكنيسة إنذارًا فيبادر الجميع الى حمل السّلاح

□□ الهرم الدينيّ والدنيويّ

□ البطريرك

البطريرك رأسُ الهرم الدينيّ والسياسيّ – أمير الكنيسة ومليك الأمّة.

كانت له الزعامة الدينيّة والزعامة العسكريّة – كما رأينا في حروب مار يوحنا مارون مع العرب والروم، وكما سنرى في دور البطريركيّة تجاه الحملات الصليبيّة ودوره في حروب كسروان.

وفي الواقع التاريخيّ، كان البطريرك يُعين في المراكز الإكليريكيّة، ويثبّت المراكز العسكريّة والاداريّة، وينوب عن طائفته في العلاقات الاقليميّة والخارجيّة، ويسهر على تطبيق العدالة كمرجع قضائيّ أخير.

وكان سلاحه الزاجر الحرم الذي يفصل المحروم – مهما كانت مرتبته كبيرة – عن المجموعة.

انتخاب البطريرك: يمكن القول إنّ انتخاب البطريرك الماروني جسّد المعنى الجذريّ لديمقراطيّة المجتمع.

كان الانتخاب يتمّ بدون ترشيح وبوجود رجال الدين والشّعب.

قلنا رجال الدين وليس المطارنة فحسب، لأنّ الانتخاب في البدء كان دينيًّا – شعبيًّا. يشترك فيه جميع رجال الدين من خوري الى مطرانٍ وشعب. وكلمة «شعب» كانت تعني أكبر مجموعة ممكنة من الناس تساهم بالانتخاب.

وهكذا كان يُسمّى الانتخاب بصوت حي وأحيانًا كان يتمّ الانتخاب بغياب من يصبح بطريركًا لأنّ المجموعة كان عليها اختيار الأفضل حتى لو كان غائبًا.

ورغم انخراط الكنيسة المارونيّة بالتراتيّة الرومانيّة في الجيل الثامن عشر، بقي الانتخاب «بالصوت الحيّ» معمولاً به، ولكنّ المادة ١٨ من العدد ٧ من الفصل السادس من المجمع اللبنانيّ[١] اشترطت أن يكون بالاجماع.

وعندما انحصر الانتخاب بالمطارنة بقي تقليدًا لا يزال يُعمل به حتى اليوم وهو إبلاغ نتيجة الانتخاب لبعض البلدات المارونيّة والعائلات – الأعيان. وممّا يلفت النظر ويدلّ على شموليّة البطريركيّة المارونيّة السياسيّة، أنّ من بين الأعيان الذين يُصار الى إبلاغهم آل حمادة الشيعيّة.

قلنا إنّ رأس الهرم الدينيّ والسياسيّ هو البطريرك وأساس الهرم هو الشعب.

وكان بين الرأس والأساس تراتبٌ من مطارنة وكهنة – الخوري – ولكنّ الحلقة القوية في هذا التنظيم كان المقدّم.

---

١. المجمع اللبنانيّ: مجمع للموارنة عُقِدَ في دير اللويزة ١٧٣٦ م. على أيّام البطريرك يوسف ضرغام الخازن بحضرة يوسف السمعانيّ موفدًا بابويًا. وُضِعت في هذا المجمع قوانين الطائفة الكنسيّة.



راهب ماروني من القرن السابع عشر

❑ المقدّم

هو المقدّم المنعوت بالأمير والزعيم.

دوره الأصيل أنه زعيم حرب يختاره القوم تقديرًا لشجاعته.

لكلّ بلدة ذات أهمية بالتنظيم الماروني مقدّم على الأقل، إليه يعود الأمر بدعوة الرجال إلى حمل السلاح وقيادتهم الى القتال.

وعليه تقع تبعة العدالة وجباية النوريّة.

كان له كرسيّ في مجلس الأعيان.

وكان عليه أن يشارك بهذه الصفة بانتخاب البطريرك، ولذلك كانت السلطة البطريركيّة بعد اختيار المقدّم ترسمه شمّاسًا أو شدياقًا حتى يندمج في السلك الدينيّ.

وكانت آخر رسامة يذكرها التاريخ للشيخ سعد الخوري على يد البطريرك الجميل.

تطوّر المقدّمية خلال التاريخ: في البدء كان المقدّمون يؤخذون كلّهم من أسرة مار يوحنا مارون.

لكنّ هذه القاعدة أصبحت سريعًا في حكم الملغاة لأنّ المجتمع المارونيّ لم يكن بوسعه أن يتحمّل اتباع الخطّ الوراثيّ، بل اختيار الأجدر نظرًا لوضع المجتمع كما ورد آنفًا.

وإذا كان **نظام الاستخلاف** سار في فترة زمنية بعد حروب كسروان لدى مقدّمي بشري – العناحلة – أي في عائلةٍ واحدةٍ فإنّ **نظام البكريّة** لم يكن معروفًا لدى المجتمع المارونيّ.

وهذه المساواة المبدئيّة لم تمنع الصراعات على السلطة الدامية أحيانًا بين العائلات المختلفة وبين أفراد العائلة الواحدة.

لذلك منذ أواخر الجيل الخامس عشر، أعيد التنظيم القديم لانتخاب المقدّم والصفات التي يتمتّع بها ولصلاحياته ومعاونيه نسردها كما وردت[٢]:

١. **انتخاب المقدّم**: يكون انتخابه برأي الجميع «صوت حيّ» أو رمي قرعة ولذلك حدّدت الوثيقة الصفات التي يجب أن يتمتّع بها من يتقدّم لهذا المنصب.

٢. **صفات المقدّم**: أ) أن يكون عليه المنظر المهاب – جسور – طيّب القلب لا يخاف من أحد أخصامه ولو على الموت. ب) أن يكون فهيم – غير خفيف العقل كي لا يعرّض رجاله الى الخطر. جـ) أن يقرأ ولو فقط الكتب البيتية أي الدينية.

٣. **معاونوه**: «من بعده يعيّن مديرين على الأقلّ أمينين» وبرأي الجمهور، واذا اضطرّ ان يُقيم من كل عائلة مدير.

وكما للمقدّم يقتضي أن يكون المديرون من أصحاب الصفات الحميدة وخاصة بجمع الجمهور عند **طرح الصوت**.

إنّ انتخاب المقدّم كان يرتبط مباشرةً بالبطريركية. وكانت السلطات الكنسيّة تدخله دومًا في سلكها برسمه فورًا «شماسًا» أو «شدياقًا».

وقد استمرّت هذه العادة حتى القرن الثامن عشر إذ رُسِم الشيخ سعد الخوري شماسًا على يد البطريرك فيليبوس الجميل.

ولكنّ هذا الارتباط التراثيّ الدينيّ والدنيويّ بالبطريركيّة لم يمنع

---

٢. حفاظًا على أمانة المخطوط لم نعمد إلى تصحيح الأخطاء اللغويّة والاملائيّة الواردة فيه.

أطماع بعض المقدّمين الذين حاولوا التخلّص من سلطة البطريرك أو الاستقلال عنها أو التمرّد عليها.

فالتاريخ المارونيّ إن كان مكتوبًا أو تراثًا شعبيًّا يروي أحداثًا حصلت: من قصة عنتر ملحمة مقدّم العاقورة والمنتصر على جيش المماليك، الى مقدّمي بشري الذين تمرّدوا على البطريرك يوحنا المخلوف مما اضطرّه للجوء الى الشوف عند الأمير فخر الدين الثاني.

مهما يكن من أمر فإنّ هذه الصراعات المزمنة في المجتمع المارونيّ كانت محصورةً بطبقةٍ معيّنةٍ من الزعماء.

الفصل الثالث

المارونيّة السياسيّة والدّروز

أعداءٌ أحبّاء

إنّ دخول الدروز إلى جنوب جبل لبنان شكّل عنصرًا أساسيًّا وفعّالاً لبلورة المارونيّة السياسيّة.

صحيحٌ أنّ قدومهم إلى لبنان كان لصدّ أعداء الاسلام كما قال الخليفة العباس أبو جعفر المنصور، وكلمة أعداء الاسلام تعني خاصةً المردة والموارنة.

صحيح أيضًا أنهم خاضوا معارك طاحنة مع الموارنة لمنعهم من التمدّد جنوبًا، وكانت أشرسها معركة قرب بيروت على نهرٍ صغيرٍ أصبح يحمل اسم «نهر الموت» لكثرة ما كان هنالك من قتلى على ضفاف هذا النهر.

ولكن سرعان ما تمّ تعايش بين الجماعتين، لأنّ الدروز مثل الموارنة يخشون ويتحاشون كلّ سلطةٍ مركزيّة، ولذلك نرى ضغتكين والي الشام السلجوقيّ يكتب الى الأمير شجاع الدولة الأرسلاني وذلك في ١٠٨١ قائلاً: «أرسلناكم لمحاربة الموارنة فأصبحتم أحبّاء». ولعلّ أكبر دليل على ذلك ما يُروى عن دخول التنوخيّين إلى جبل لبنان.

يُقال إنّ الأمير متى وهو جدّ التنوخيّين وبالتالي المعنيّين، كان على رأس عشيرته متسلّمًا معرّة النعمان في قطاع حلب. وذات يوم تعرّض والي حلب لزوجته، فقتله الأمير وانتقل الى كسروان، ومن ثم استوطن الغرب حيث أسّس بلدة لا تزال حتى الآن تحمل اسمه وهي بلدة كفرمتى.

وإن كانت هذه أسطورةً أو حقيقةً تاريخيّة، فهي تدلّ على أنه بالرغم من التقاتل تولّدت علاقاتٌ وديّةٌ بين الموارنة والدروز.

ويبدو أنّ هذه العلاقة تميّزت عند قدوم أوّل حملةٍ صليبيّةٍ إلى الشرق[١]، إذ نرى أنّ البطريرك المارونيّ يوسف الجرجي طلب من الأمير بردويل رئيس الحملة الصليبيّة عدم التعرّض لمدينة بيروت لأنها تخصّ أمراء الدروز وحلفاء الموارنة. وهذا التعاون برز في حروب كسروان التي خاضها الدروز والموارنة وتارةً الشيعة جنبًا الى جنب ضدّ طغيان الدولة المركزية الحاكمة.

يمكن القول إنّ نقاط التلاقي بين الموارنة والدروز كانت عديدةً وعميقةً وأهمّها التصوّر ذاته لاستقلاليّة المجتمع السياسيّ.

فالدين الدرزيّ هو دين التوحيد، أي معرفة وحدة الله، وقد توصّل إليه الدروز بعد فترةِ استعدادٍ وتهيئة.

وهذا الدين مبنيٌّ على معرفة الحقيقة، ولأنهم أصحاب الحكمة والمعرفة الحقيقيّة أي التوحيد، احترموا العقائد الدينيّة الأخرى برغم تمايزهم عنها. كما أنّه وفقًا للعقيدة الدرزيّة، لا يوجد مجالٌ للتبشير وضمّ غير الدروز الى مجتمعهم الدينيّ.

وهذا الاحترام «للإنسان» المنتمي الى عقيدةٍ أخرى كان من أهمّ

---

١. هي ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبيّة قام بها مسيحيّو الغرب في القرون الوسطى للاستيلاء على الأراضي المقدّسة. ويعود تاريخ الحملة الأولى الى الأعوام ١٠٩٦ – ١٠٩٩ التي دعا اليها البابا اوربانس ٢ وتمّ في نهايتها احتلال القدس (راجع الجدول صفحة ٦٤).

التحوّلات في المارونيّة السياسيّة، إذ جعلها تتحوّل الى حضارةٍ لبنانيةٍ تتّسع لكلّ من يسعى الى الحفاظ على حرّيّته وكرامته.

☐ التحوّل من الانعزال الى الانفتاح

يقتضي القول إنّ الفكر الدرزيّ كان أبرز عناصر هذا التحوّل من **الانعزال** الى **الانفتاح**، وسنأتي على ذكر ذلك عندما سنتكلّم عن فخر الدين مؤسّس الدولة اللبنانيّة.

إنّ وجود المجتمع الدرزيّ جنّب المارونيّة الانغلاق على نفسها، وأفهمها أنّ قضيتها لا تعني الموارنة فحسب، بل كلّ من دخل الى لبنان مستوطنًا، بقصد العيش بحريّةٍ وكرامةٍ دون تسلّطٍ أو استبدادٍ. وأعتقد أنه، لولا وجود المجتمع الدرزيّ وابتعاده عن السلطة المركزيّة على غرار الموارنة والشيعة لكانت المارونيّة انزوت وفقدت دورها كما انزوى غيرها من الطوائف المسيحيّة في الشرق.

وكما قلنا، فالتصوّر الذاتيّ الاستقلاليّ للمجتمع المارونيّ قابله تصوُّرٌ استقلاليّ ذاتيّ للمجتمع الدرزيّ، وبالتالي وحدة مصير تجاه السلطة المركزيّة التي تريد الاستبداد، وتجاه الآخر إن كان من الصليبيّين أو من المماليك الذي يريد السيطرة وفي حال الشيعة، الإبادة.

وتميّز المجتمع الدرزيّ بطابعٍ خاصٍّ نادرٍ في تلك العصور. فبالإضافة الى تضامن جميع فئات المجتمع وعيش الحياة البسيطة واحتقار البذخ وحبّ الظهور، كانت لهذا المجتمع ميزةٌ هامّةٌ تجلّت، مع انّ المجتمع الدرزيّ مجتمع متديّن، بالتسامح نحو المذاهب الأخرى. ويقول المتنادون

بالتوحيد إن رادع الانسان هو الضمير والحقيقة، وبالتضحية والتوحيد سيم جميع البشر، وعندها تصبح المعرفة شاملة. هذا التسامح سهّل تنمية الحضارة اللبنانية على أساس تعدّدي حرّ غير خاضع لأيّ استبداد.

إنّ المقولة، بأنّ جناحَي الحضارة اللبنانيّة هما الموارنة والدروز، هي حقيقة تاريخيّة. وعلى سبيل المثال لا الحصر إنّ منطقة الجبل التي كانت تمتدّ من نهر انطلياس جنوبًا، كانت موطن الدروز حتى مدّة وجيزة وتُدعى بجبل الدروز، لكنّهم تخلّوا عن هذه التسمية طوعًا ليصبح الجبل جبل لبنان.

علاقات أنشأت دولة

بالرغم من انهيار كسروان قويت علاقات الدروز والبطريركيّة المارونيّة. إذ نرى وفدًا درزيًا مارونيًا مشتركًا في مجمع فلورنسا عام ١٤٣٨م يطلب من الكرسي الرسولي إنشاء مفوضية للموارنة والدروز في جبل لبنان. وهذا ما حصل عام ١٤٤١م.

وقد تجلّت هذه العلاقة بإنشاء الدولة اللبنانيّة على يد الأمير فخر الدين الثاني آل معن.

واستمرّت في الإمارة الشهابيّة وهي وارثة آل معن، ومن ثمّ برغم المشاحنات فقد أدّت أخيرًا الى استقلال لبنان. ويمكن تحديد العلاقة الدرزيّة والمارونيّة السياسية ضمن الإطار التالي:

أوّلاً: صدّ أيّ محاولة سيطرة عسكريّة وسياسيّة للموارنة في المناطق الدرزيّة لأنها تشكّل خطرًا على التنظيم الدرزيّ.



أمير الدروز : فخر الدين

ثانيًا: التعايش بذات مناخ الحريّة والتسامح والسعي الدائم الى الاستقلالية تجاه السلطة المركزية.

ثالثًا: الانفتاح العلمي مثل الموارنة على العالم والعلم. «أما معارفهم فهي في تأخّر عظيم إلا في جبل لبنان. فهي عندهم كما هي عند الموارنة لذلك يشجّعون قيام الأديرة والمدارس».

وبالفعل إنّ أكثريّة أديرة الشوفين والأقاليم قامت على هِبات درزيّة. وفي عهد المتصرفية قرّر أعيان الدروز ضمّ الأوقاف وتخصيص ريعها في سبيل تعليم الأولاد.

وفي سبيل ذلك أُنشأت المدرسة الدرزيّة - اللبنانيّة المعرُوفة بالمدرسة الداوديّة في عبيه تحت إدارة عمدة من عشرة أعيان من الدروز على أن ثلاثين تلميذًا درزيًا يتعلّمون فيها مجانًا على نفقة الوقف العام.

والدليل على ذلك التعاون الدائم والمستمرّ حتى الآن بين البطريركيّة المارونيّة والزعامات الدرزيّة.

إنّ البطريركيّة المارونية التي تعتبر نفسها عن حقّ، رأس الهرم الاجتماعيّ المارونيّ، سعت عبر التاريخ وتسعى دائمًا الى ضبط النفوذ المدنيّ المارونيّ إن كان سياسيًا أو عسكريًا.

لذلك نرى الاتفاق التامّ بين البطريرك والحاكم اللبنانيّ منذ أيّام فخر الدين شرط ألاّ يكون هذا الحاكم مارونيًا، فلم يقع أيّ خلاف بين البطريركيّة وسلالة آل معن منذ أقام فخر الدين الدولة اللبنانيّة. واستمرّت الحالة كذلك في أيّام أمراء آل شهاب حتى الأمير بشير الثاني الذي وُلِد مارونيًا. وعندما استلم الحكم حاول السيطرة على البطريركيّة،

فأرغم البطريرك يوسف التيان على الاستقالة وجعل دور خلفائه بالمرتبة الثانية.

بعد ذلك حاول إضعاف نفوذ الزعامات الدرزيّة وإنهاءَها مما جرّ البلاد الى عاميات، ومن ثمّ الى ثورة، فإلى انهيار الإمارة اللبنانيّة على أثر حرب أهليّة مارونيّة درزيّة دامت نحو عشرين سنة.

فكلّما حاول الموارنة ولو بصورةٍ ديمغرافيّةٍ السيطرة على المناطق الدرزيّة يقع الخلل فينجم عنه ضررٌ أكيدٌ وثابتٌ للمارونيّة السياسيّة واستقلاليّة لبنان.

وهكذا كان على مرّ الأيام والعصور ولغاية الآن. ونُضيف انّ الجبل قد وفّر دائمًا للطائفة الدرزيّة، مهما كثر عددها أو قلّ ملجأً يتمتّعون فيه بحريّة معتقدهم.

وكان المجتمع – الشعب يرذل الطبقة السياسية دائمًا خوفًا من ضياع هويته، هذه الهوية التي يُقال إنّ مار يوحنا مارون وضعها بوصايا الموارنة وقد بقي الكرسي البطريركي مؤتمنًا عليها.

□ وصايا الموارنة

الجميع يعلم كم كثُرَ القول والجدل حول هذه الوصايا، وكم كثُرت الروايات عنها عبر التاريخ.

ففي عام ١٠٩٨ لجأ **المطران توما** مطران كفرطان أو كفرطاب، وهي كورة قرب حلب، الى جبل لبنان، واستقرّ في يانوح – قرب العاقورة – ويبدو أنه كان عالمًا بقضايا اللاهوت وكتب به رسائله «العشر».

وبإحدى رسائله جوابًا عن سؤال المطران ارساتيوس حول ما هو الفرق بين البيع المسيحيّة، أجاب معدِّدًا كلّ الفرق الأمة «المحبّبة» وهكذا يسمي المسيحية: «وجدنا أنّ لا فرق يُذكر بينهم لجهة الدين انما تغيّرت الأمة المارونيّة بوضعها الدنيويّ» أي السياسيّ لأنها لا تزال تتمسّك بما أوصاها الأب القديس يوحنا مارون وهي ثلاث وصايا:

أولاً: أتقنوا العلم لأنه يقيكم من الظلم.

ثانيًا: أتقنوا القوّة لأنها توقيكم من القهر.

ثالثًا: أتقنوا الشراسة لأنها توقيكم من التعدّيات.

❑ أخوة في الوطن

إنّ الحادثة التاريخيّة التالية تدلّ على ماهية جبل لبنان الملجأ: عام ١٨١١ م. /١٢٢٦ هـ. قام راغب باشا، باشا حلب، على دروز الجبل الأعلى، وكلّف طوبال آغا بإبادتهم، وبالرغم من مقاومتهم قتل منهم ١٨٠٠ شخص وأحرق قراهم.

فأرسلوا يستغيثون بالأمير بشير الثاني الذي كتب إلى باشا حلب وإلى باشا الشام.

«واستخلص الدروز المذكورين وأحضرهم الى بلاده ووجّه اليهم مئتي كيس لأجل معيشتهم».

وقد وجّه الشيخ بشير جنبلاط والشيخ أمين أبو صعب مع الخيّالة الى بادية الشام لحمايتهم في الطريق، وقد وصل منهم أربعمئة عائلة الى جبل لبنان وقطنوا في جميع أنحاء الجبل.

وكلّ عائلة درزيّة تحمل اسم «الحلبي» حتى الآن هي منهم.

ونذكر أخيرًا وليس آخرًا ما قاله أحد الكتّاب اللبنانيّين عن دروز لبنان، وذلك عام ١٨٧٣م. بعد الحوادث الدامية التي حصلت: «وبعد ذلك ساد السكون والراحة والألفة بينهم وبين أبناء الجبل المسيحيّين فأصبحوا جميعًا أخوة في الوطن كما في الزمان القديم».

الفصل الرابع

الموارنة والحملات الصليبيّة

□□ الاتفاق ثم الاختلاف

«بين الأساطير والأقاويل أصبح من المسلّمات أنّ الموارنة تعاونوا مع الحملات الصليبيّة وكانوا خير مساعدٍ ومُسعفٍ لهم لروابط دينيّة بحتة».

وقد عزّز هذا الإسناد مؤرّخون موارنة عديدون تملُّقًا للكرسي الرسولي، ومن ثمّ للدول الغربيّة، وخاصةً فرنسا، إذ عزوا الروابط الآنيّة الى جذورٍ تاريخيّةٍ تعود الى ما قبل الحملة التي أرسلها الامبراطور الفرنسي نابوليون الثالث توطيدًا للأمن في لبنان إثر حوادث ١٨٦٠م.

حتى أنّ بعض المستشرقين ربطوا، ليس بين الموارنة والصليبيّين، بل أيضًا بين الصليبيّين والدروز، ناسبينَ اسمهم الى عائلةٍ فرنسيّةٍ عريقةٍ هي Dreux.

حصل كلُّ هذا خلال فترةٍ زمنيّةٍ فتّش الغرب فيها عن أصدقاء في الشرق لمصالحه ضدّ السلطنة العثمانيّة، وفتّش لبنان عن روابط تاريخيّة مع الغرب لحماية استقلاليته، فاعتقد الكثيرُ من المؤرّخين والمحلّلين أنّ بين الموارنة والغرب تحالفًا مصيريًا مبنيًّا على وحدة الدين وروابط التاريخ.

وسنحاول توضيح هذه العلاقة، استنادًا الى المراجع المعاصرة لها، خاصةً الصليبيّة منها على مثال غلام الصوري Cuillaume de Tyr ويعقوب فتري Jacques de Vitry، اللذين عاصراها وعايشاها.

الحملات الصليبية

الحملات وتاريخها	القادة	النتائج
الحملة الشعبية ١٠٩٥	بطرس الناسك	قضى عليها الاتراك في البلقان.
الحملة ١" ١٠٩٦ - ١٠٩٩	دعا اليها البابا اوربانس ٢" غودفروا دي بويون، بوهمند، تانكريد، ريمون دي سان جيل	احتلال القدس ١٠٩٩ مملكة القدس اللاتينية
الحملة ٢" ١١٤٧ - ١١٤٩	دعا اليها القديس برناردس لويس ٧" ملك فرنسا، كونراد ٣" امبراطور جرمانيا	حصار دمشق الفاشل
الحملة ٣" ١١٨٩ - ١١٩٢	فيليب اوغست ملك فرنسا، فردريك قلب الأسد ملك الكلترا	احتلال قبرص وعكا ١١٩١
الحملة٤" ١٢٠٤	بودوان دي فلاندر بونيفاس دي مونفيرا	امبراطورية القسطنطينية اللاتينية
الحملة ٥" ١٢١٧ - ١٢٢١	اندراوس ٢" ملك المجر، جان دي بريين ملك القدس	استرجاع الصليب
الحملة ٦" ١٢٢٨ - ١٢٢٩	فردريك ٢" امبراطور جرمانيا	استعادة القدس والناصرة عن طريق المفاوضات
الحملة ٧" ١٢٤٨ - ١٢٥٤	لويس ٩" ملك فرنسا بعد مجمع ليون ١٢٤٥	احتلال دمياط اسر الملك في المنصورة ١٢٥٠
الحملة ٨" ١٢٧٠	لويس ٩" ملك فرنسا	حملة فاشلة على تونس مات الملك اثناءها

عندما بدأت الحملة الصليبيّة في الشرق، كان السلجوقيّون في الشام والفاطميّون في مصر وجنوب فلسطين. وكان الفاطميّون على علاقةٍ وثيقةٍ بالمجموعة الدرزيّة والشيعيّة وكذلك بالموارنة، وكانت هذه المجموعات قد بدأت تتعايش سويّةً وتتأقلم.

لذلك كان للحملات الصليبيّة بنظر الفرنج طابعٌ دينيٌّ بحتيٌّ وحتى، إذا جاز التعبير، طابعٌ أصوليٌّ كاثوليكيٌّ. فقد كانت على الأقلّ في بدايتها، بنظر الموارنة وغيرها من المجموعات الشرقيّة، عنصرًا مساعدًا لتخفيف طغيان السلجوقيّين على المنطقة.

وعند قيام أوّل حملةٍ صليبيّةٍ عام ١٠٩٨، كان البطريرك يوسف الجرجسي على السدّة البطركية، وهو الذي حدّد أسس تحالف شعبه مع الحملة الأولى.

هنا يقتضي التأكيد على أنّه كان هنالك تحالفٌ وليس عمالة.

وصلت أوّل حملةٍ صليبيّة في ٧ نيسان ١٠٩٩ الى عرقا في بلاد عكار وحاصرتها، «فانحدر اليهم النصارى من جبل لبنان فرحّبوا بهم وأنجدوهم بالذخيرة وأخذوا يُرشدونهم الى الطريق»، كما قال الدويهي.

وقد توسّط البطريرك لدى الصليبيّين لصاحب طرابلس الشيعيّ ابن عمّار الذي أرسل إليهم خمسة عشر ألف دينار لمنعهم عن طرابلس وجبيل. وعندما سارت الحملة نحو بيروت، طلب البطريرك يوسف الجرجسي من الأمير بلدوين أن يجتاز بيروت ولا يمسّها لما كان للبطركيّة المارونيّة من علاقاتٍ مع أمراء بيروت والدروز. وبعد استيلاء الصليبيّين على القدس، ذهب وفد صليبيّ – مارونيّ مشترك الى روما في عهد

البابا باسكال الثاني سنة ١٠٩٩م، فسُرّ البابا بزيارة الوفد، وأرسل الى البطريرك تاجًا وعكازًا.

ويقول الأستاذ صبحي محمصاني: «عندما احتلّ الصليبيّون بيروت هدموا جميع الجوامع والزوايا الإسلاميّة ما عدا زاوية الإمام الاوزاعي. وكان ذلك بناءً على طلب البطريرك المارونيّ وفاءً لما قام به الإمام أثناء ثورة المنيطرة للدفاع عن الموارنة».

ولكنّ هذه الصداقة لم تستمرّ طويلاً فبعد ثبوت دولة الفرنج، تعرّضت المارونيّة السياسيّة الى محاولاتٍ للسيطرة عليها. وكان الخلاف جذريًّا بين المجتمع المارونيّ والفرنج. وهو خلافٌ تنظيميّ واقتصاديّ اتّخذ شكلاً طائفيًا مذهبيًا.

فالتنظيم المارونيّ غير الوراثيّ، من انتخاب البطريرك الرئيس السياسيّ والدينيّ، إلى اختيار المقدّمين القادة العسكريّين وفقًا للكفاءة وليس بالوراثة، كان بنظر الغرب المتمسّك بالنظام الاقطاعيّ الوراثيّ شيئًا غير مألوفٍ، وبالتالي غير طبيعيّ.

أما على الصعيد الاقتصاديّ فكان الخلاف تامًّا، إذ كان السيّد بنظر الفرنج هو سيّد الأرض ومواسمها كليًّا، والفلاّح لا يزال عبدًا، من الكلمة اللاتينية سرقوس، بينما كان التنظيم المارونيّ يعتبر الفلاّح جزءًا هامًّا من المجتمع يتمتّع بحريّة الفرد، وحريّة الملكيّة لأرضه ومواسمه. إذ إنّ ملكية الأرض، كما أشرنا سابقًا، كانت للمجموعة ككلّ حسب مبدأ التنظيم الماروني «للشيوع».

اصطدم الفرنج بهذا النظام، واضطرّوا الى تعديل نظريّتهم

الاقتصاديّة بجعل ثلاثة أرباع الموسم للسيّد، وربعه للفلاّح، وهذا ما يُدعى حتى الآن نظام المرابعة.

وكان الموارنة يرفضون هذا النظام رفضًا باتًّا، فأدّى ذلك إلى صدامات دامية سنذكرها في ما بعد.

أما الخلاف الطائفيّ المذهبيّ، فكان يشمل ما يلي:

أولاً: المناولة بالخبز والخمر.

ثانيًا: الكهنة المتزوّجون.

ثالثًا: وجود رهبان غير منتظمين بمؤسّساتٍ رهبانيّةٍ لها قوانين.

وإذا كان الجزء الطائفيّ أصبح موضوع بحثٍ على مستوى الأساقفة والبابا، فإنّ الجزء الاقتصاديّ كان «الخبز اليوميّ».

وبادئ ذي بدء، عاون الموارنة الفرنج، وساعدوهم كما قلنا، ولم تكن مساعدة الفرنج وقفًا على الموارنة بل تملّقهم الولاة المسلمون اتقاءً لشرّهم أو أملاً في مساعدتهم على حلّ خلافاتهم الداخليّة.

وإن كنّا نعطي أهميّةً كبيرةً الآن للحملات الصليبيّة، خاصةً بعد أن اتّخذت هذا الطابع في الغرب، فإنّ الحروب الصليبيّة كانت بنظر المعاصرين المسلمين جزءًا من هموم الولاة، إذ إنّ النزاع على السلطة بين السلطان والأمراء والخليفة كان همّهم الأكبر[1].

بعد أن سيطر الفرنج على طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا زادت غطرستهم، وأصبح كثيرون منهم ينظرون الى الاستقلاليّة المارونيّة بعين

١. راجع «الكامل بالتاريخ» لابن الأثير.

البغض، قابلها عند قسم من الموارنة نقمة أدّت الى جفاء واشتباكات دامية.

وحصل أوّل صدام في جبّة المنيطرة حيث أقام الموارنة حصنًا منيعًا للمراقبة والسيطرة على البقاع.

وكان الموارنة كما قلنا، أصدقاء للفرنج ومرحّبين بهم فسلّموهم الحصن. ولكن «Le Guide de Moinestre» أخذ يطالب بغلّة الأرض كلّها، وينظر الى الموارنة بشيءٍ من الغطرسة.

وعام ٥٦١ هـ./١١٦٥م.، وبعد مراسلاتٍ «سرّيّة»، أرسل السلطان نور الدين محمود بن زنكي[٢] «جريدة» من العسكر، أي عدد قليل، وأخذ الحصن عنوةً وسلّمه لأهل البلاد شرط ألاّ يُردّ للإفرنج.

هذا ما رواه ابن الحريري وردّده ابن سباط. وكانت لسقوط حصن المنيطرة ذيولٌ كبيرة، إذ إنّ منطقة جبّة المنيطرة خرجت بكاملها عن السيطرة الصليبيّة، فانتقلت البطريركيّة المارونيّة مجدّدًا الى يانوح حيث نعمت باستقلالٍ تامّ.

---

٢. زنكي (نور الدين) (توفي عام ١١٧٤): أتابك حلب بعد اغتيال أبيه. ملك الشام ومصر. حارب الصليبيّين وانتزع منهم الرّها وبانياس ١١٦٤. ضمّ المَوصل الى ممتلكاته بعد حصارٍ شاقّ. شيّد الحصون والمساجد ودُفن في المدرسة النوريّة بدمشق.

□□ البطاركة المجهولون

هم حنا اللحفدي واريميا الدملصاوي ولوقا البنهراني.

يمرّ المؤرّخون بسرعةٍ خاطفة، وخاصةً الموارنة ومعظمهم من الاكليريكيّين، عند ذكر بطاركة الموارنة لهذه الحقبة من التاريخ جاهلين أو متجاهلين ما حصل.

يضع المؤرّخ لوكيان في كلامه عن هؤلاء البطاركة عددًا حول أسمائهم الثلاثة فيقول ٢٩ – ٣٠ – ٣١ تاركًا مكان الاسم بياضًا.

أما ابن القلاعي فيتّهم الشيطان «بدسّ السمّ برأسهم» بواسطة واحدٍ من نبوح والثاني من يانوح.

فمن هم هؤلاء البطاركة، وما هي قصّتهم، وما تزامن معها من أحداثٍ اقليميّةٍ ودوليّةٍ في عهدهم؟

عندما وقع صدام المنيطرة كان يرأس الطائفة المارونيّة البطريرك يوحنا اللحفديّ (١١٥١ – ١١٧٣م) وكان كرسيّه في ميفوق بأبرشيّة البترون.

وضع أمير طرابلس الصليبيّ بونس Pons يده على أبرشيّة البترون انتقامًا لما حصل في جبة المنيطرة. فرحل البطريرك من ميفوق الى يانوح التي كانت قد خرجت عن السيطرة الصليبيّة، ورفض الخضوع دينيًا ودنيويًا للحكم الصليبيّ، وزاد على اسمه لقب بطرس، رابطًا نفسه ببطرس رأس الكنيسة للدلالة على استقلاليّة الموارنة الدينيّة والدنيويّة.

□ أحداث جبّة بشري ١١٦٧م.

أخذ بونس Pons بالتنكيل بموارنة جبّة بشري جيرانه. وتحالف الموارنة مجدّدًا مع السلطان نور الدين الذي أرسل لهم جيشًا مع كبير الأمراء بزداش التركي.

وقعت المعركة في سهل طرابلس، وقُتل بونس Pons وقام ابنه ريمون Raymond بحرب انتقامٍ على الموارنة اتّخذت شكل حرب إبادةٍ، فبعد أن قتل منهم حتى النساء والأولاد، ساق فريقًا الى طرابلس حيث أعدم قسمًا وباع ما تبقّى بسوق الرقّ.

□ البطريرك لوقا البنهراني

هو أشدّ البطاركة المجهولين فقد أعلن حياد الجبل ومنع الصليبيّين وغيرهم منه لما قام به الصليبيّون حيال رعيته في بشري، وأقام في يانوح وكان يعاونه رجلٌ يُدعى ابن شعبان ومطران يُدعى عيسى.

أعلن استقلاله السياسيّ والعسكريّ، حتى قيل إنّه أسكن فريقًا من الدروز في جبة المنيطرة لمعاونته بمنع دخول الغرباء الى الجبل، وبالفعل لا يزال هنالك مكانٌ في الجبّة يحمل اسم عريض الدروز.

ويبدو أنه حصل في ايامه انشقاق بين الموارنة، فاجتمع بعض المطارنة والأعيان من الموارنة وانفصلوا عن البطريرك لوقا.

ويُقال إنهم أقاموا بطريركًا جديدًا قتله أصحاب البطريرك لوقا. والجدير بالذكر إنّ البطريرك لوقا البنهراني استفاد من وضع دينيّ وسياسيّ عمّ جميع أنحاء العالم الكاثوليكيّ لتدعيم استقلاله.

ففي روما حصل انشقاق في الكرسي الرسوليّ، حيث انتخب أربعة باباوات منشقّون من فكتور الرابع الى كالكسة الثالث، كما أنّ انشقاقًا مماثلاً حصل إقليميًّا في الكنيسة اللاتينيّة في أورشليم القدس.

على كل حال تبيّن ممّا ذكرنا، أنّ الخلاف لم يكن مذهبيًّا، إنما كان سياسيًّا لمنع الهيمنة حتى من الحليف.

واعتبر بعض المؤرخين الموارنة أنّ الخلاف دينيّ، ناسبًا الى هؤلاء البطاركة وخاصةً الى البطريرك لوقا، اتّباع تعاليم **توما الكفرطابي**[٣] – الضالة حسب رأيهم – والذي كان قد توفّي منذ زمنٍ بعيد، فقد اتّبع البطريرك لوقا ما قاله توما وما ذكرناه سابقًا لجهة القضايا السياسية وليس لجهة القضايا الدينيّة.

□ خلفُ لوقا

هنالك جدلٌ حول اسمه ويُعتقَد أنّه كان اريميا الدملصاوي من دملصا. رأب الصدع في طائفته من دون أن يتنازل عن أيّ مطلب من مطالب لوقا لجهة إضافة اسم بطرس على لقبه.

كما أنه حافظ على استقلاليته بدون عنفٍ، فأعيدت على أيامه أبرشيّة البترون للموارنة. وكان الضغط الاسلاميّ قد اشتدّ على الصليبيّين وبرزت الخلافات فيما بينهم فاحتاجوا مجدّدًا الى الموارنة.

---

٣. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع: «الرسائل العشر لتوما الكفرطابي»، تحقيق شارل شرتوني، دار المشرق، بيروت.

❑ البطريرك ارميا العمشيتي

بعد وفاة البطريرك اريميا الدملصاوي، انتُخب للسدّة البطريرك ارميا العمشيتي. كان بطريركًا عظيمًا تعامل مع الصليبيّين من الندّ للندّ إن لم يكن أكثر كما سنرى.

على الصعيد الدينيّ: اتفق البطريرك ارميا مع امرليك Amerlic البطريرك اللاتينيّ لأورشليم الذي كان بدوره قد أعاد اللحمة الى كرسيّه.

وذهب الى روما حيث حضر المجمع اللاتراني Concile de Latran[٤]، ويُقال إنّ الربّ مكّنه من أعجوبةٍ أمام المجمع إذ استقرّ القربان المقدس بين يديه، وهنالك نال اعترافًا صريحًا من البابا بصحّة ايمانه، كما كرّس له المجمع لقب بطرس وللبطاركة الموارنة من بعده.

على الصعيد السياسيّ: أصبح رمزًا إقليميًّا حتى أنه أضحى حكمًا للأمراء الصليبيّين عندما اختلفوا. ففي عام ١٢٨٢م. استطاع جمع أمير انطاكية وصاحب جبيل في بلدة انفة حيث اتخذاه حكمًا لحلّ خلافٍ حدث بينهما.

أثبتت هذه الحوادث أنّ الاتفاق مع المارونيّة أمرٌ سهل، ولكنّ السيطرة عليها أمرٌ صعب حتى ولو حصل انشقاق في المجتمع المارونيّ.

---

٤. عُقِد في قصر اللاتران Latran في روما خمسة مجامع تعود الى السنوات ١١٢٣، ١١٣٩، ١١٧٩، ١٢١٥ و ١٥١٢م.

فالاستقلاليّة المارونيّة قائمةٌ بحدّ ذاتها، ولا يمكن لبعض الزعماء مهما علا شأنهم التخلّي عنها. وثبت أن لهذه الاستقلالية وجهين متلازمين، وجهًا دينيًا ووجهًا سياسيًا.

□ ذهاب الصليبيّين وبقاء الموارنة

بعد ارميا العمشيتي دام الاتفاق طويلاً، وأصبح الموارنة السند الأساسيّ للصليبيّين في شمال لبنان. هذا ما دلّ عليه كتاب القديس لويس[٥] ملك فرنسا الى أمير الموارنة وبطريرك الطائفة المذكورة وأساقفتهم، فقد ساعدوا على ردّ هجوم المماليك على طرابلس أكثر من مرّة.

اكتسب الموارنة من الانفتاح على الغرب أشياء من الحضارة الغربيّة كأجراس الكنائس النحاسيّة التي أصبحت من مميّزات الجبل.

لكنّ الصليبيّين كانوا جسمًا غريبًا في الشرق، فذهبوا، وبقي الموارنة في موطنهم. ذهب الصليبيّون بذلّ وخذلان. وعندما تقدّم جيش المماليك نحو جبيل تركها الفرنج وأبقوا الأبواب مفتوحةً، حتى نزل مقدّمو الجبل وأغلقوا أبوابها وحافظوا عليها. والتجأ قسم من الصليبيّين الى منطقة اهدن، بعد سقوط إمارة طرابلس، واندمجوا بأبنائها الموارنة بناءً لبراءة من البابا اسكندر.

---

٥. لويس التاسع (١٢١٤ – ١٢٧٠م.): من أشهر ملوك فرنسا. قاد الحملتين الصليبيّتين السابعة والثامنة. وصل إلى دمياط عام ١٢٤٩م. أسر في معركة المنصورة عام ١٢٥٠م. وتوفّي بالطاعون في تونس.

انتهت الحملة الصليبيّة وتكرّست المارونيّة السياسيّة في الجبل، وتعايشت مع الدروز والشيعة، وكانت غايتهم جميعًا المحافظة على استقلالهم تجاه السلطة المركزيّة الممثلة في ذلك الوقت بحكم المماليك.

وهذا ما أدّى مجدّدًا الى حروب إبادةٍ استمرّت من عام ١٢٦٠م. الى ١٣٠٧م. وهي ما يسمّيه التاريخ حروب كسروان.

الفصل الخامس

حروب كسروان

من أشدّ المِحَن في حياة الشعب اللبنانيّ، ما يُسمّى تاريخيًّا بـحروب كسروان. وقد خاضها سكان الجبل من موارنة ودروز وشيعة ضدّ المماليك.

وكانت دولة المماليك أقوى دولة عسكريّة بتلك الأيام، فقد طردت الفرنج من عكا وأنهت بذلك الحروب الصليبيّة.

كما أنها بانتصارها في عين جالوت، أوقفت الزحف المغوليّ أو التتريّ كما تسمّيه العامة.

وقد اتّخذت «حروب كسروان» شكل حرب إبادة.

عن «حروب كسروان» كتبَ الكثيرون وصعُبَ التأويل لوفرة أخبار هذه الحروب عند المؤرّخين المسلمين أوّلاً مثل صالح بن يحيى والمقريزي وابن الحريري وابن سباط الذين عاصروها. وأخبارها أيضًا عند ابن القلاعي والدويهي من المؤرّخين الموارنة الذين عايشوها بذاكرة شعبهم. وبالرغم من ذلك كان هنالك من فسّرها وفق غايته وذوقه.

□□ تاريخ حروب كسروان

حتى عهدٍ قريب وتاريخ «حروب كسروان» ما زال موضوع جدلٍ.

وبالاسناد الى المراجع التي نوّهنا عنها آنفًا، يمكن القول إنّ هنالك ثلاث حروب أو حملات على كسروان، امتدّت على فترات متقطّعة من عام ١٢٩٢م. الى عام ١٣٠٧م.

فلذلك لا يمكن فصل «حروب كسروان» وما سبقها وتلاها عن الوضع السياسيّ العسكريّ في منطقة الشرق الأوسط.

كان العالم الاسلاميّ في الجيل الثالث عشر بخطر، والحكم الاسلاميّ السنّي المملوكيّ بخطر:

خطرٌ خارجيّ وخطرٌ داخليّ.

خارجيًا المغول، أو ما يسمّيه المؤرّخون «التتر»، الذين اجتاحوا الشرق وأسقطوا بغداد محاولين برغم وقعة «عين جالوت» السيطرة على العالم الاسلاميّ كافةً.

والفرنج لا يزالون في السواحل، وعكا حصنٌ حصين ومركز تجاريّ رفيع.

أمراء الفرنج في طرابلس تأقلموا مع الوضع المحلّي وكانوا على وفاق مع أهالي جبل لبنان من موارنةٍ ودروزٍ، وخصوصًا الموارنة الذين أنقذوا طرابلس وأرغموا المماليك على رفع الحصار عنها.

والفرنجيّ على أتمّ الاستعداد للتحالف مع التتريّ.

وداخليًّا أطاح المماليك بالدولة الأيوبيّة، ولكنّ مشروعيّتهم دقيقةٌ وصعبةٌ فلأول مرّةٍ في الإسلام أُقيمت الخطبة باسم امرأة «شجرة الدرّ»[١] (أمّ خليل)، فلذلك لا تسامُح ولا تساهُل، خصوصًا في مناطق نفوذ السلطنة، مع جماعات مثل الموارنة والدروز والشيعة، فهم يبحثون دائمًا عن طريقة لتخفيف وطأة الدولة المركزيّة السنيّة أو تقليص نفوذها عليهم.

ضمن هذا الإطار يقتضي التكلّم على هذه الحروب.

وبالفعل لم تبدأ حروب كسروان عام ١٢٩٢م. بل سبقتها عدّة وقائع سنحاول سردها.

❑ نكبة غرب جبل لبنان

إنّ عبارة نكبة وردت بتاريخ صالح بن يحيى وابن الحريري وردّدها الدويهي. في ١٥ حزيران عام ١٢٧٦م، بلغ **السلطان الظاهر** أنّ أمراء الغرب التنوخيّين ومركزهم نابيه كاتبوا **البرنس** صاحب طرابلس، فأرسلت حملة دهمت قرى الغرب ونهبتها، وخطفت الحريم والأولاد،

---

١. شجرة الدرّ (توفيت ١٢٥٧م.): زوجة الملك الصالح الأيوبيّ. ملكة مصر بعد وفاة زوجها واغتيال ابنه توران شاه عام ١٢٥٠م. تزوّجت بوزيرها عزّ الدين أيبك مؤسّس دولة المماليك، ونزلت له عن السلطنة واحتفظت بالسيطرة عليه، ثم تآمرت على اغتياله فقبض عليها ابنه علي وسلّمها الى أمّه التي أمرت جواريها أن يقتلنها فضُربت بالقباقب والنّعال حتّى ماتت.

واعتقلت الأمراء جمال الدين وزين الدين وسعد الدين التنوخيّين فسُجنوا في القاهرة.

واقتطع السلطان الغرب لأمير من حزب المماليك قطب الدين السعيد الذي سكن في كفرعمية وظلم واستبدّ.

وخلال عام ١٢٧٧م، تمكّن الأمير التنّوخي نجم الدين، وهو ابن الأمير سعد الدين المعتقل بمصر، من جمع رجاله واجتياح كفرعمية وقتل الوالي المملوكيّ وطرد جنوده من الجبل.

فحضر السلطان السعيد الذي كان قد خلف الظاهر من القاهرة الى الشام وجمع الجيوش في صيدا وبيروت والبقاع، وأحرق الغرب، فأرسل الدروز أولادهم وحريمهم الى كسروان، وبقي الأمير نجم الدين يقاوم في الغرب ويشنّ الغارة تلو الغارة على العسكر.

ولقرب فصل الشتاء ووعر البلاد هادن السلطان الأمير نجم الدين وأعاده الى إقطاعه في بلاد الغرب.

☐ الحملة على جبّة بشري والبطريرك دانيال الحدشيتي

عام ١٢٨٣ م. بعد أن أنجد الموارنة فرنج طرابلس لفكّ الحصار عن المدينة، توجّهت حملة من المماليك الى جبّة بشري في شهر أيار من تلك السنة، بقيادة السلطان قلاوون، وكان الموارنة بقيادة بطريركهم دانيال الحدشيتي الذي نال درع التثبيت من رومية عام ١٢٨٠م. وكان على قول المؤرّخ ابن الظاهر «شابًا تجبّر واستطال وتكبّر حتى أنه أخاف صاحب طرابلس».

وهو الذي قاد مقاومة شعبه، فبعد حصار اهدن سار أمام شعبه شاقًا طريقه بين العسكر السلطانيّ، ويُروى أنه كان يحارب بيده.

وسار العسكر السلطانيّ وأعمل السيف بأهالي حصرون وكفر سارون.

وفي ٢٢ آب من السنة نفسها، وبسبب خيانة أحد زعماء الموارنة وهو ابن الصبحا، وقع البطريرك الحدشيتي في الأسر. وعُدّ أسره، وفقًا للمؤرّخين المسلمين، انتصارًا عظيمًا للسلطان يفوق انتصار فتح الجبّة.

وتقول التقاليد المارونيّة إنّه لما مثل أمام السلطان عرض عليه إقطاعًا كبيرًا، على أن يعتنق الدين الاسلاميّ، فأبى قائلاً: «إن ملكوت معلّمي وسيّدي، أي المسيح، ليست على هذه الأرض». فأُعدم.

فندم ابن الصبحا الذي كان شاهدًا على إعدام البطريرك، وتاب فبنى دير سيدة حوقا، وأصبح مثالاً لرجال السياسة الموارنة الخونة.

ويبدو أنّ بشري لم تسقط وبقيت صامدة.

☐ أسطورة السلطان قلاوون

من تقاليد التراث المارونيّ الهامّة عن هذه الحملة أنّه عندما خُلع السلطان **محمد بن قلاوون** عن الحكم سار هائمًا في البلاد لا يستقبله أحدٌ خوفًا من كتبغا[٢] الذي خلعه.

فوصل ذات ليلة من ليالي شباط القارسة في جبال لبنان الى قنوبين، ودخل الى الدير الحقير فوجد راهبًا متعبّدًا جالسًا على الأرض، وبقربه

---

٢. كَتْبغا (الملك العادل): من المماليك البحريّين ١٢٩٤ – ١٢٩٦. خُلع أيضًا.

رفاقه، فرحّب الراهب بضيف الليل، فسأله السلطان المخلوع: «من أنتَ؟»؛ فأجاب الراهب: «عادة الضيف أن يُعرّف عن نفسه»؛ فردّ السلطان: «أنا السلطان المخلوع لم يتجاسر أحدٌ على استقبالي فبمن أنت قويّ؟»؛ فأجاب الراهب: «أنا الحقير البطريرك المارونيّ وقوتي بالله وشعبي».

وعندما عاد السلطان الى الحكم، أرسل صفيحةً من الذهب براءةً وإعفاءً لهذا البطريرك، وهكذا انتهت الحملة على الجبّة.

ليس المهمّ بهذه التقاليد إسنادها التاريخيّ بمعنى التاريخ، وإنما أثرها المُقتدى به في تراث المجموعة. فهي تجمع أسطورة البطل الشهيد - البطريرك الحدشيتي - والخائن النادم ابن الصبحا، ولبنان حصن الحريّة وملجأ المضطهد (قضية لجوء السلطان الى قنونين). ولا تزال هذه الأفكار توجّه حتى يومنا هذا المجتمع اللبنانيّ. فارتباط الماضي بالحاضر يجعلنا نتفهّم الثوابت الاجتماعيّة، وبالتالي يمكن النظر الى المستقبل بتفاؤل.

❑ الحرب الأولى

نشبت الحرب الأولى في أواخر الجيل الثالث عشر عام ١٢٩٢م. حيث توجّه الأمير بيدرا نائب السلطان قلاوون مع بعض الأمراء وأقام حملةً على كسروان.

ويقول صالح بن يحيى في «تاريخ بيروت»:

«عندما دخل بيدرا إلى الجبل، حضر من ثنى عزمه وكسر حزمه، مُدليًا بأن مسالك الجبل وعرة، فتمكن أهالي الجبل من بعض العسكر.

فحصلت اتصالات بين بيدرا والجبليّين لسحب عسكره فخلع على زعماء الجبل ووعدهم بترك الرهائن التي كانت بالشام.

وعند عودة العسكر وقع بعضهم بكمائن نصبها الجبليّون فتضايق الأمراء والعسكر وتشتّتوا.

ولدى العودة الى الشام، اتهم باقي الأمراء بيدرا بسوء التدبير وحتى بالرشوة، وفي الشام تلقّاه السلطان بالإكرام. ولكن سُقي السمّ من قِبَل بيبرس وشُفي منه. وبعد مدة انتقم بيدرا من لاجين وبيبرس إذ قبض عليهما بأمرٍ من السلطان بحجة مؤامرة لاستلام السلطة».

وهكذا نرى أنه نتيجةً لصمود جبل لبنان برز الخلاف على السلطة في الشام.

❑ الحرب الثانية

عندما استلم **حسام الدين لاجين** نيابة السلطنة في الشام عام ١٣٠٢م/٧٠٢هـ.، نزل الفرنج بقيادة الأميرال بوسيكو **Bouciccaut** عند نهر الدامور ليلة الاربعاء في الثامن من جمادى الأول، فحاول أمراء الغرب منعه، فقتل الأمير فخر الدين بن جمال الدين التنوخي وأسر أخوه شمس الدين. وانتقل الأسطول الى نهر الكلب، حيث لقيه أهالي كسروان وزوّدوه بالمؤن، ومن ثمّ أبحر الى قبرص، وهنالك جرت اتصالات لاطلاق سراح الأمير شمس الدين لقاء مبلغ ثلاثة آلاف دينار دفعها ناصر الدين بن خضر، فأطلق بوسيكو سراحه، برغم الوعد الذي كان قد قطعه في نهر الكلب لأهل كسروان. وعندها كتب الأمير شمس الدين للسلطان بأنّ الكسروانيّين تعاونوا مع الفرنج.

فصدرت الأوامر الى الأقوش نائب دمشق وسيف الدين اسدمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقر المنصوري نائب صفد لمقاتلة الجرديّين وأهل كسروان من ثلاث جهات: طرابلس، بيروت وصيدا.

معركة المدفون والفيدار: اجتمع مقدّمو الجبل وكان عددهم ثلاثين وعلى رأسهم عنتر ملحمة مقدّم العاقورة. وضع عنتر كمينًا من ألفي مقاتل عند جسر المدفون بقيادة المقدّم خالد مشمش، كما أنّه وضع كمينًا عند جسر الفيدار بقيادة سعاده وأخيه سركيس مقدّمي أبلج.

وانحدر عنتر مع بنيامين مقدّم حردين على رأس ثلاثين ألف مقاتل الى جبيل، وهزما جيش المماليك الذي كان قد تجمّع هناك بينما كان كمينا المدفون والفيدار يصدّان الامدادات الآتية من طرابلس وبيروت.

وقد قُتل بالفيدار الأميران التنوخيّان نجم الدين وأخوه شهاب الدين أحمد. أما في معركة جبيل، فقد هزم عنتر المماليك وقتل قائدهم، بينما قُتل بنيامين مقدّم حردين ودفن عند باب الأركان في جبيل، أي الباب الشمالي للسور.

وقد غنم الجبيليّون غنائم كثيرة من السلاح والمال وأهمّها أربعة آلاف رأس خيل.

الصخرة المحرومة: صعد المقدّمون من جبيل الى معاد لاقتسام الغنائم، فأخذ عنتر حصّةً أكبر بكثير من حصّته بحجّة قيادته المعركة بشجاعة وجرأة.

واشتكى المقدّمون منه الى البطريرك. وعندما لم يعمد عنتر الى قسمة جديدة ضربه بالحرم فاعتزل المقدّم كلّ عمل وانزوى في بيته.

وبعد مدة كان البطريرك عائدًا من قنوبين الى يانوح. عندما قبضت عليه شرذمة من العسكر وربطته على شجرة جوز في بلعا.

فوصل شمّاسه الى العاقورة طارحًا الصوت فلبّى عنتر النداء وتمكّن من طرد العسكر، وحلّ رباط البطريرك الذي لم يرضَ أن يُقبّل عنتر ملحمة يده، ولم يوجّه إليه أيّ كلمة كونه محرومًا.

وكانت زوجة عنتر ملحمة برفقته فأخذت تتوسّل الى البطريرك وتتضرّع لرفع الحرم عن زوجها، سائرةً من بلعة الى اللقلوق قرب بغلة البطريرك، مدليةً بمزايا عنتر وشجاعته، فلما وصلوا قرب عين البطريرك في اللقلوق، قال لها: «رفعت الحرم عن زوجك»؛ فأجابت: «آمنت ولكنّي لم أصدّق»؛ فأجاب البطريرك: «رفعت الحرم عن زوجك ورميته على هذه الصخرة». فانشقّت الصخرة ولا تزال حتى الآن تُعرف بالصخرة المحرومة وهي في حديقة اوتيل اللقلوق.

لا فرق إن كان قسمٌ من هذه القصة تاريخيًّا والقسمُ الآخر أسطوريًّا، فهي تكرّس في ذهنية الماروني سيطرة البطريرك على كلّ زعيم مارونيّ مهما علا شأنه، حتى وإن كان زعيمًا مقاتلاً وناجحًا.

فعنتر ملحمة ربح المعركة، ومن ثم أنقذ حياة البطريرك، ولكنّه إذ خالف رأيه اضطرّ الى الرجوع الى مركز الطاعة.

وهكذا أثبتت الأساطير أنّ قوّة السيد البطريرك فوق الجميع.

□ الحرب الثالثة

كانت الحرب الثالثة حربَ إبادةٍ شملت كلّ سكان جبل لبنان من موارنة ودروز وحتى شيعة. لأنّه برغم ما يقوله بعض المؤرّخين، وخصوصًا الأب لامنس اليسوعي[٣]، فإن حملة المماليك استهدفت الموارنة أوّلاً ومن ثمّ الدروز، وبطريقها قتلت ما أمكن من الشيعة.

وقائع الحرب: لم يكن بإمكان السلطة المركزية للمماليك تحمّل ما حصل بين المدفون والفيدار. لقد نقل صالح بن يحيى عن النويري ما حرفيّته: «كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدّت شوكتهم وتطاولوا على أذى العسكر وأغضى السلطان عنهم وتمادى في عقابهم فزاد طغيانهم».

ويزيد ابن الحريري في اتّهامه أهالي كسروان: «كانوا يقطعون الطرق ويخطفون المسلمين ويبيعونهم الى الافرنج»، ربّما نسبةً الى حادثة الأمير شمس الدين التي نوّهنا عنها آنفًا.

وهذا ما يورده أيضًا البطريرك **بولس مسعد** بكتابه «الدرّ المنظوم».

المفاوضات: في سنة ١٣٠٤م/٧٠٤هـ. أرسل أقوش الأخرم نائب دمشق الى الكسروانيين الشريف **زين الدين بن عدنان**، يأمرهم بإصلاح شأنهم مع آل تنوخ وأن يدخلوا في طاعة السلطان فأبوا.

---

٣. هنري لامنس Lammens (٦٢٨٧ – ١٩٣٧): مستشرق بلجيكيّ وراهب يسوعيّ. اشتهر بأبحاثه عن عرب الجاهليّة والعهد الأمويّ. من مؤلّفاته الهامة في هذا الموضوع: «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» و«تاريخ سورية». أدار مجلة «المشرق».

فقام نائب دمشق بمحاولة ثانية وأرسل لهم تقي الدين بن غنيمة في صحبة قراقوش، وعندما لم يحصل اتفاق أفتى رجال الفقه باجتياح بلادهم «وأنّ من نهب امرأة كانت له جارية أو صبيًا كان له مملوكًا ومن أحضر منهم رأسًا كان له دينار».

وكانت هذه المفاوضات قد دامت حوالى ثلاث سنوات، وفي عام ١٣٠٧م./٧٠٧هـ. في يوم الاثنين ثاني محرم هاجم أقوش جبل لبنان.

زحف أقوش بخمسين ألف جنديّ الى الجبال القريبة من بيروت، فجمع الدروز وأهالي كسروان عشرة آلاف مقاتل. وكانت الوقعة عند عين صوفر، فدارت الدائرة على اللبنانيين وانكسروا، وهرب قسم من الأولاد والحريم واختبأوا في مغارة البلانة قرب نابيه فوق انطلياس، ودافعوا عن أنفسهم و لم يقدر الجيش المملوكيّ أن ينال منهم. ثم عرض أقوش عليهم الأمان فلم يخرجوا، فأمر أن يبني الجند سدًّا من الحجر والكلس وفوقه تلال من التراب، وكلّف الأمير قطلوبك بحراسة السدّ والمغارة. ودام الحصار أربعين يومًا حتى هلك كلّ من كان بالمغارة.

أحاط العسكر بكسروان من جميع الجهات وخصوصًا من ناحية الفتوح الذي دُعي بعد ذلك «فتوح كسروان». وترجّلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال المنيعة، «ووطئوا أرضًا لم يظنّ أهلها أنّ أحدًا قد يصل اليها».

فدمّروا اثنتين وخمسين قريةً منها ثلاث وثلاثون كبيرة، وقطعوا الكروم وهدموا الكنائس ورشوا الملح على الأرض حتى يمنع نبت الزرع مجدّدًا.

دافع الأهلون دفاعًا شديدًا «حتى ملّت وكلّت العساكر من الجانبين»، ولم يبقَ بكلّ كسروان سوى حصن معراب قائمًا، ويبدو وفقًا لما قاله المؤرّخ الكسرواني الحتوني، نقلاً عن البطريرك بولس مسعد، إنّ أهالي جبيل والبترون لم يشتركوا بالحرب: «إنّ أهالي جبيل والبترون استقامت مقدّمتهم عند نهر ابراهيم»، وقال ابن الحريري عن أهالي كسروان إنّ عسكر أقوش قتلهم وفرّقهم وأذلّهم.

أما القليل فقد تشتّتوا في باقي المناطق اللبنانيّة، ويقول ابن القلاعي:

أضحت النصارى تبكي وتندب كسروان وكسرها الذي لا يُجبر

وصارت بريّة يسكنها البوم والوحوش. وبعد ذلك سلّم المماليك سواحل كسروان الى تركمان الكورة بإمرة آل عساف ليمنعوا الفرنج من الاتصال بسكان الجبل، وجعلوا دركهم من انطلياس الى جسر المعاملتين وسكناهم في الاذوق – ذوق مصباح، ذوق الخراب وكلمة ذوق – تعني الجحيم.

وشيّد التركمان برجًا لهم بقيت آثاره في طبرجا. وكان عليهم، اذا قام الافرنج بمحاولة نزول، إبلاغ الشام ليلاً بواسطة شعلة نار، ونهارًا بواسطة حمامة تحمل بطاقة.

وهكذا انتهت «حروب كسروان»، ويقتضي نسبةً للمارونيّة السياسيّة ملاحظة الأمور التالية:

أولاً: لم ينتهِ الموارنة إلى الأبد عام ١٣٠٧م، كما كُتب على هامش مخطوطة لصالح بن يحيى.

ثانيًا: للغربيين الفرنج مصالح، وليس لهم عاطفة طائفيّة، والدلالة على ذلك إطلاق الاميرال الفرنسي الأمير التنوخيّ لقاء فدية بالرغم

من أنّ ذلك سبّب حربَي كسروان الثانية والثالثة. وهذا ما يفسّر قول بعض المؤرّخين، وخصوصًا الأب لامنس اليسوعي ومن تبعه، بأنّ لا علاقة للموارنة بحروب كسروان برغم وجود أسماء قادة المحاربين والتفاصيل والشروح الكافية الوافية للمؤرّخين المعاصرين لهذه الحروب. فقد كتب لامنس وتبعه الدبس وغيرهما في الجيل التاسع عشر، محاولين تعزيز علاقات الغرب بالموارنة على أساس دينيّ وطائفيّ، ولذلك تجاهلوا وحاولوا تجاهل ما حصل في «حروب كسروان»، كما حصل تجاهل لما حدث حينًا من سوء العلاقات بين الموارنة والصليبيّين، وإذا راجعت مسألة لبنان لجوبلين تجد أنّ الموارنة والفرنج أضحوا على ممرّ العصور شعبًا واحدًا.

ثالثًا: إنّ «حروب كسروان» أوجدت عند الموارنة عقدة العودة الى كسروان فأرادوا استعادة ما خسروه بالحرب.

وما لك إلاّ أن تقرأ ما أورده الحتوني «بتاريخ المقاطعة الكسروانية» بتعداد الكنائس والأديرة ويلحقها بالعبارة التالية «وهذا الدير أو هذه الكنيسة هي العدد كذا من الأديرة أو الكنائس المتجدّدة في كسروان بعد خرابه».

وكان الشعب يحرص دائمًا على إقامة مكان العبادة محلّ المكان الذي خرب في حروب كسروان. وهكذا أقيم حوالى ٥١ ديرًا وكنيسة في ٥١ قرية.

رابعًا: الأهمّ من كلّ ذلك في حروب كسروان ظهور تضامن درزيّ – مارونيّ خارج الإطار الطائفيّ، فقد خاض الفريقان حرب إبادة ضدّ سلطة مركزية، شملت كلّ من لا يريد الخضوع لها.

اتّخذت «حروب كسروان» اذًا طابعًا سياسيًّا لا دينيًّا، إذ إنّ قسمًا من الموارنة في الشمال بقي على الحياد، وقسمًا من دروز الغرب حارب مع السلطة المركزيّة. وهذا التضامن سيقوى ويزدهر برغم خراب كسروان، ويمكن القول بفضل خراب كسروان. وهكذا نرى وفدًا درزيًّا – مارونيًّا مشتركًا يتوجّه الى مجمع فلورنسا[٣].

وسوف نرى الستّ نسب تهرّب أولادها من الاضطهاد العثماني الى كسروان. لذلك يمكن القول إنّ «حروب كسروان» على المدى البعيد أعطت ثمارًا للمارونية السياسية، لأنّها ستكون تحضيرًا لنشوء الدولة اللبنانيّة، وهي الهدف الأسمى للمارونيّة السياسيّة.

---

٣. كان من المقرّر عقد هذا المجمع في مدينة فرّاري، ثم نُقِل إلى مدينة فلورنسا، واستمرّ من عام ١٤٣٨ الى ١٤٤٥م.

الفصل السادس

فخر الدين رائد الحضارة اللبنانيّة ومؤسّس دولة لبنان

إذا كانت الحضارة اللبنانيّة هي هدف المارونيّة السياسيّة فقد جسّدها الدرزيّ فخر الدين المعنيّ بكلّ معانيها ومنجزاتها. ولا نزال في لبنان، إن شئنا أم أبينا، نعيشُ على تراث فخر الدين المعنيّ بالرغم من الشوائب والخروقات التي قامت بها الطبقة السياسيّة اللبنانيّة، وخاصةً المارونيّة، لهذا التراث. وربّما من أهمّ هذه الخروقات المقولة لدى بعض المؤرّخين الموارنة بأنّ فخر الدين اعتنق النصرانيّة.

إنّ الامير فخر الدين ولد درزيًّا ومات درزيًّا، وهذا فخرٌ كبيرٌ للمارونيّة السياسيّة وبالتالي للحضارة اللبنانيّة.

منذ ولادته جسّد فخر الدين بشخصه التيّارين الحزبيّين في الجبل: القيسي واليمني. وكانت والدته الستّ نسب من أمراء آل علم الدين اليمنيّ، ووالده قرقماز معن رأس القيسيّين.

كما أنّ نكبة الشوف وانتقاله مع شقيقته ووالدته الى كسروان عند الشدياق سركيس الخازن، والعناية التي أحيطوا بها، فتحت له مجال التعرّف عن كثب إلى الجناح الآخر من جبل لبنان: الموارنة.

لذلك عندما استلم الحكم عام ١٥٩٠م. اعتبر أنّ ركيزة الجبل تكمن في جناحَيه الدرزيّ والمارونيّ. وهذا لا يعني أنّ فخر الدين حصر نشاطه بهاتين الطائفتين.

▭▭ فخر الدين واضع صيغة التعايش

جعل فخر الدين المجتمع الطائفيّ في الشرق من سنّةٍ وشيعةٍ ويهودٍ يلتفّ حول شخصه، وخطّط لدولةٍ عصريّةٍ في زمنٍ لم يكن فيه لهذه اللفظة من معنى.

وفي زمن كانت الحروب الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت مشتعلةً في اوروبا جعل فخر الدين من لبنان واحة تسامح دينيّ.

وذلك في زمنٍ كان المبدأ القانونيّ في اوروبا Cujus Rei Cujus Dei أو ما يُترجم بتساهل: «الناس على دين ملوكهم»، وقد قلت يترجم بتساهل لأنّ ترجمته الحرفيّة بشعة وتعني: «إلزام الرعيّة بدين الملك».

▭ فخر الدين والسنّة

من المقولات التاريخيّة الجاهلة او المتجاهلة التلميح والبحث عن سوء العلاقة بين فخر الدين والسنّة، كونه عارض السلطان العثمانيّ أمير المؤمنين وحاربه.

والواقع يُدحض هذه المقولة الكاذبة.

فإنّ علاقة فخر الدين مع أمراء آل شهاب كانت أكثر من علاقة سياسيّة وعسكريّة. وكان آل شهاب السنّة «رأس حربة» فخر الدين، وكانت بينهما علاقة عائلية وطيدة، جعلت فيما بعد من أمراء آل شهاب السنّة وارثي آل معن والحكام الشرعيّين لجبل لبنان، حتى أنّ الامير حيدر شهاب كان يوقّع «حيدر معن».

أمّا بالنسبة الى باقي السنّة، فإن من كبار مؤرّخي فخر الدين الشيخ بن محمد الخالدي.

وبالإضافة الى ذلك فقد أعاد فخر الدين إعمار بيروت «السنّية» وسنذكر ذلك لاحقًا.

ويعود ازدهار مدينة صيدا لما قام به فخر الدين من أعمال اقتصادية وعمرانية، وقد بنى في صيدا «الجامع البرّاني» وحبس له الأوقاف وجعله مدفنًا لعائلته، كما أنه بنى في القاع جامعًا.

وكان يحضر، على كونه درزيًّا، الأعياد الرسمية، فضلاً عن أنّ حاشيته ضمّت علماء سُنّة يتلقّون منه رواتبهم، وكان له مؤذّن رافقه الى ايطاليا.

☐ فخر الدين والشيعة

أما علاقته مع شيعة البقاع فهي معلومة من الجميع إذ إنّه اعتبرهم دائمًا من ركائز حكمه وقد حصلت مصاهرة بينه وبين أمراء آل حرفوش.

ولكنه اهتمّ كذلك بشيعة جبل عامل وأدخلهم ضمن الخليّة اللبنانيّة. والدليل على ذلك قصة الشيخ لطف الله الميسي العاملي. كان الشيخ لطف الله من علماء جبل عامل ومقرّبًا من فخر الدين، فأرسله فخر الدين كمعتمدٍ لدى الشاه عبّاس الى أصفهان، وقد أعجب الشاه بتقوى الشيخ وعلمه وسلامة عقله فقرّبه إليه.

وكان الشيخ لطف الله من أهمّ الدعاة لدولة فخر الدين. وعندما بنى الشاه مسجده الأكبر أمر بتشييد مسجد آخر صغير في ساحة



فخر الدين: أمير فارس وواضع صيغة التعايش

أصفهان الكبرى، دعي مسجد الشيخ لطف الله العاملي، وساهم الشيخ لطف الله بنشر المبادئ الشيعيّة الاثني عشر في ايران.

❑ فخر الدين والرّوم الملكيّون

أمّا بالنسبة الى طائفة الروم فكان لهم اهتمامٌ خاصٌ عند الأمير فخر الدين، وكان يشجّعهم على الامتداد من عكار وطرابلس والكورة الى جنوب لبنان. وعندما حصل الانشقاق في طائفة الروم على أثر انتخاب **البطريرك اغناطيوس عطية**، وعيّنت السلطات العثمانية بطريركًا آخر هو **كيريلّس دباس**، لجأ البطريرك عطية الى فخر الدين الذي أخذه تحت حمايته، وكان كلّ من البطريركين يدّعي أنه شرعيّ.

وبناءً على طلب فخر الدين عُقد مجمع في بعلبك في أول حزيران ١٦٢٧م حضره أحد عشر أسقفًا، وكان المجمع برعاية فخر الدين وبحضوره الشخصي، فقرّر الجميع اعتبار البطريرك عطية هو البطريرك الشرعي، ونفّذ فخر الدين فورًا قرار المجمع وأعفيَ للمرة الأولى وربّما الأخيرة في العهد العثماني، البطريرك المنتخب من طلب فرمان تثبيت من الدولة العثمانية.

❑ فخر الدين واليهود

كانت معاملة فخر الدين للطائفة اليهوديّة في لبنان مميّزة في أيامٍ تميّزت باضطهاد اليهود في جميع انحاء العالم، وخاصّةً في ايطاليا واسبانيا، فسمح لهم بالهجرة الى لبنان.

وكان قد اتّخذ مديرًا لشؤونه المالية المعلم ابراهيم نحمياس من يهود دير القمر، كما أسكن في دير القمر عائلة كارو الهاربة من اسبانيا، وقد رافقه اسحق كارو بصفة كاتب للشيخ كيوان نعمه عندما سافر الأمير الى ايطاليا.

ويقول الخالدي في كتاب تاريخ فخر الدين، إنه عندماجمع الرجال سنة ١٦١٩م انضمّ اليه كثيرٌ من «بني سنّي وبني متوالي».

وقد خصّ فخر الدين سياسته ببيت شعر نظمه إذ قال:

بلادي عن حبّها ما لي غنى
هي بعيني أغلى شيء بالدني
شعبي ان جمعته من أقوى الشعوب
يهزّ بعزمه عرش السلطني

وكان قوله وفعله.

ولسنا هنا في مجال سرد حروب فخر الدين، إنما يقتضي القول إنه قام بها لحماية الحضارة التي كان رائدها. ولذلك أنشأ أول جيش وطنيّ في العالم الحديث.

إنّ ما نقوله ليس على سبيل الأسطورة والمبالغة لكنّه مثبت بوقائع تاريخية، وإذا أكّدنا على علاقة فخر الدين مع السنّة والشيعة «والملكيّين»، فذلك لأنّ بعض المؤرّخين قد تجاهلها مع تركيزهم على حصرها بالموارنة والدروز.

وإذا لم نسرد علاقة فخر الدين بالموارنة والدروز، فلأنّ جميع المؤرخين ركّزوا عليها لدرجة ان بعضهم، مثل المرسل الكبوشي روجيه، ادّعى خطأً أنّ الامير الكبير اعتنق النصرانيّة.

ولكن لا بدّ من أن نذكر كيف أنّ فخر الدين حمى البطريرك المارونيّ حنا المخلوف الذي تعرّض للاضطهاد من قبل بعض السياسيّين الموارنة المدعومين من **سيفا باشا طرابلسي**، وكيف أسكنه بإعزازٍ وإكرامٍ في قرية مجدل المعوش من أعمال الشوف.

□ فخر الدين الرائد السياسيّ

إنّ أمنيتنا هي وضع فخر الدين ضمن إطار عصره، أي الجيل السابع عشر المسيحيّ، لبيان أهميّة تفكيره المخالفْ لتفكير الحكام في تلك الأيام.

فقد اعتمد المساواة بين جميع أبناء الطوائف التي كانت موجودة على أرضه ضامنًا ليس فقط العيش الحرّ الكريم، وإنّما راغبًا باستعمال كلّ الكفاءات، فيما كان التعصب الدينيّ وحتى المذهبيّ يلفّ الشرق والغرب. وكان خطّه السياسي من الاعتماد على جيشٍ وطنيّ شعبيّ الى تأليف وزارةٍ لكلّ من بها ما يسمّى اليوم حقيبة وزارية واهتمامه بشعبه يتجاوز بأشواط آراء الحكام معاصريه، حيث كلّ شيء كان محصورًا بالحاكم ولمصلحته الشخصيّة.

هذا مع العلم أنّه لم يحاول يومًا فرض مركزيّة ثقيلة على شعبه، بل ترك المشايخ والمقدّمين والأمراء يسوسون قضايا بمجموعاتهم.

وبهذا كان رائدًا سياسيًّا حتى لعصرنا الحالي، إذ تبيّن أنّ المركزية هي إحدى آفات مجتمعنا الحاضرة.

أمّا القوة الحقيقيّة الجذريّة للتراث الذي تركه لنا فخر الدين،

فتكمن في الثقافة والحضارة الانسانيّة التي شملت ميادين النشاط البشريّ من الثقافة الى البناء الى الزراعة كافةً.

□ فخر الدين والثقافة

كانت ثقافة فخر الدين نابعة من شخصيّته.

قال الخالدي في ترجمته عن فخر الدين: «صاحب هذه السيرة سليم الصدر متواضع بشوش. وهو في حلبة الطعان عبوس هيوش حليم عند الغضب ما سمعت منه الكلمة الفحشة قط.

يُصغي الى المظلوم فينصفه ممّن ظلمه ويرثي لحاله فيكون له خير راحم.

مربع القامة حنطيّ اللون لطيف الهامة مهاب جليل ذو عطاء جزيل شديد العزم حسن التدبير وكما يعطف على الغني يحنو على الفقير».

وقال الأب روجيه «كان حدّ البصر والفهم، شجاعًا لا يغلب، ميّالاً الى العلم والعلماء متضلّعًا في معرفة النجوم والفلسفة التي أخذها عن والدته فانكبّ على درس الكيمياء».

ونستنتج من أقوال معاصريه أنّ الامير كان مثقّفًا أكثر بكثير من حكام زمانه شرقًا وغربًا.

كان يكتب اللغة اللبنانية ويتكلّم التركية والايطالية وتعلّم اللغة الاسبانية أثناء رحلته الى ايطاليا وصقلية.

وكان كاتبًا وشاعرًا. فقد ترجم من الايطالية كتاب Traité de chimie لاندريا متيولي «في الكيمياء» وعلّق عليه.

وكان قد كلّف بعثةً كي تصنّف له النباتات المختلفة بأصولها وأوراقها وكلّف رسامًا فرنسيًّا ليصوّرها. فصُنعت له ألف وخمسمئة بألوانها الطبيعيّة الزاهية، وكان أوّل كتاب وضع من هذا النوع.

وبعد أن ترجم المطران جرجس عميره، الذي سيصبح فيما بعد بطريركًا، كتابًا عن «الهندسة في فلورنسا وتوسكانا»، نقّحه الامير فخر الدين وجعله دستور البناء اللبنانيّ فأبقى على حيطان الكلين التي كانت تحمي بيوتنا من البرد والحر، وأخذ من الهندسة الايطالية الواجهات بثلاث قناطر والتراسينا التي أصبحت من ميزات الطراز اللبناني باسم المندلون.

هذا ما وصل الينا من أعماله الكتابيّة والفنيّة.

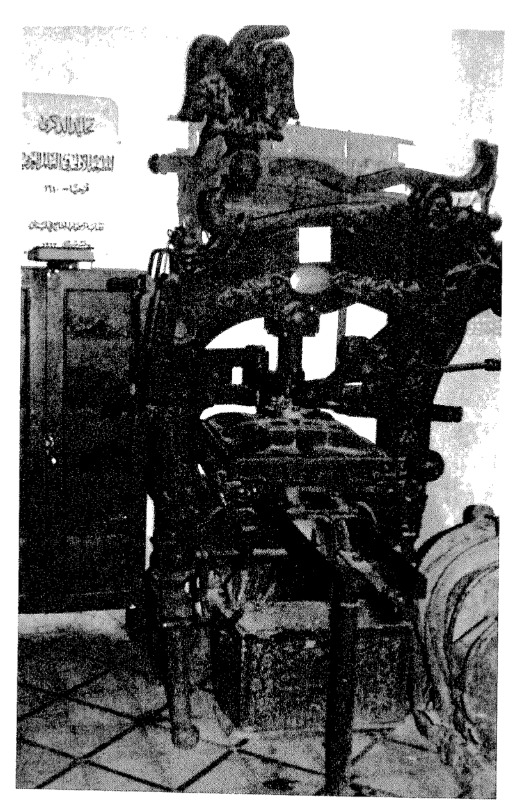
بالاضافة الى أنّه كان شاعرًا زجليًّا باللغة اللبنانية وربّما كان يضرب العود، فله رسم وبيده عود.

وقد أوردنا في بداية هذا الفصل شعرًا عن حبّه لبلاده، وهاكَ من أشعاره ونظرته للثقافة قوله:

«قولو لأهـــل الذكـــا
قولو لأهـــل الخـــبر
القلم بيجمع الدنيـــا
ولو كـــان طولـــو فتر».

وعلى هذ الأساس اهتمّ بتثقيف شعبه. وكان من أهمّ إنجازاته إدخاله الطباعة لأوّل مرة الى الشرق.

فأوّل مطبعة قامت خارج القارّة الاوروبيّة كانت في لبنان،



المطبعة الأولى في العالم العربي: دير قزحيا ١٦١٠

وباشرت عملها سنة ١٦١٠م في دير قزحيا قرب قنوبين، وقد أتى بها خرّيجو مدرسة روما، وأشرف عليها الشماس يوسف داود كرمسده[١].

وعمّم المدارس، وشجّع أبناء شعبه على التعلّم إن كان في بلاده أو في الخارج، ففي عام ١٦٢٤م أنشأ البطريرك مدرسة سيدة عين ورقة[٢]، وهي مدرسة حديثة مخصّصة لتربية النشء على «التقويم التعليمي الجديد» المعتمد من الآباء اليسوعيّين في أوروبا.

وفي عهده أنشأ الخوري نصر الله شلق، وهو من اخصّائه، المدرسة المارونيّة في رقانا.

◻ الإعمار

كُتِب الكثير عن بناء فخر الدين للقلاع وتحصين بعضها، وعن عقده الجسور وبناء الخانات (خان الفرنج في صيدا)، وعن تحسينه المرافئ،وعن تعمير دير القمر وبناء قيصريّة فيها وقصرًا من «حجارة بلاد عكار».

إنّ ما قام به من بناء وعقد جسور وشقّ طرق من القدس الى تدمر– حيث يوجد قلعة باسم بيت معن – كان أوّل عمل بنائيّ عام

١. أثناء اجتماع المؤلّف مع مواطنين من الولايات المتحدة ذكر لهم قصّة دخول أول مطبعة الى لبنان عام ١٦١٠م. بالرغم من صدور «ارادة» سلطانيّة تعتبرها من الأعمال الشيطانيّة، فاندهش أحدهم وقال: «كان يوجد مطبعة في لبنان قبل وصول الآباء الحجاج إلى اميركا؟»، أي قبل أواخر ١٦٢٠م.

٢. مدرسة عين ورقة: رائدة المدارس الوطنية في لبنان تقع بين بلدة غوسطا ومعراب في قضاء كسروان.

يُقام في ربوعنا منذ العهد الرومانيّ. وهنا تجدر الإشارة الى كيفية تلزيمه ما يمكن تسميته «بالأشغال العامة» من طرق وجسور.

فإنه كان يكلّف بها أهالي الجوار ويرسل لهم عند الاقتضاء بنّائين أو ما نسمّيهم اليوم مهندسين. وكان أكثر هؤلاء من طائفة الروم، ويُكنى الماهرون منهم بالحجار.

وكان، بالإضافة لما يدفعه من خزينته الخاصة، يفرض مساهمةً من المستفيدين من هذه الطرقات والجسور، ويوليهم مراقبة حسن سير الأعمال.

☐ بيروت

سنكتفي بسرد ما قام به في بيروت من أعمالٍ عمرانيّةٍ أهمّها إعادة ترميم حرج بيروت الذي لم يكن باقيًا منه سوى القليل.

وكان فخر الدين، وهذا من مميزاته كرائدٍ عصريّ، مغرمًا بالأشجار والأحراج – أي ما يسمّونه الآن الحزب الأخضر – مدافعًا عن البيئة. فقد قال السائح ساندرس الذي جال في الشرق عام ١٦١٠م: «إنّ فخر الدين رمّم الخراب وشجّر الأماكن المهجورة»، قلنا إنّه أعاد ترميم حرج بيروت مستعينًا بخبراء ايطاليّين، مهتمًّا بأشجار الصنوبر، حتى ان بعضهم نسبوا هذا الحرج إليه.

وقد قام بجرّ المياه مجدّدًا الى المدينة بواسطة القناة الرومانيّة القديمة في عين عار.

❑ قصر فخر الدين

بنى فخر الدين في بيروت قصرًا تحدّث عنه السيّاح والناس، وقالوا إنّ لا مثيل له في السلطنة، وحتّى في بلادٍ كثيرةٍ من الغرب. وقال عنه الرحّالة مندريل Maundrell: «إنّه في غاية الإتقان مما يجعله جديرًا بأكبر أمراء الغرب».

كان القصر قائمًا في الجهة الشرقيّة الشماليّة للمدينة، عند محلّة سينما ريفولي، وقرب برج الكشاف الذي بناه هو أيضًا.

وكان للقصر درج بمئة درجةٍ ودرجة من بلاط الرخام يوصل الى البحر، وعن يمين الدرج حديقة اشجار من البرتقال وغيره من الثمار. وتتخلّل هذه الحديقة مماش رخاميّة مربّعة تقسّمها الى ستّ عشرة قطعة. ولكلٍّ من المربّعات أقنية توزّع عليها مياه الريّ. ونقل فخر الدين الى البستان تماثيل رومانيّة وجدت في آثار بيروت وخلده.

وكان على يسار الدرج حديقةٌ للحيوانات سمّاها العامة «خان الوحوش»، وقربها، أي محلّة سينما اوبرا، اصطبلٌ للخيل يقوم على عدّة صفوف من القناطر المربّعة، ولكلّ حجرةٍ نافذةٌ للتهوية ومعلّقٌ حجريّ وغرفةٌ للسائس.

وكان القصر مؤلّفًا من عدّة أجنحة، في مدخله سبيل من الماء وُصِفَ بأنّه أبدع ما في الأراضي العثمانيّة صُنعًا.

❑ الزراعة

الكلّ يعرف اهتمام فخر الدين بالتجارة وتنشيطها في مختلف

الأنحاء، وحمايته للتجار من وطنيّين وأجانب. فقد وطّد الأمن برًّا وبحرًا، وعادت صيدا وبيروت وطرابلس وحتى صور وجبيل تشاهد من جديد المراكبَ بكثرةٍ في مياهها، فعاد التجّار الأجانب الى صيدا، وكانوا قد هجروها الى حلب منذ عام ١٥٤٥م، كما عادوا الى ميناء طرابلس وكانوا قد تركوه – نظرًا لجشع يوسف سيفا – الى خليج الاسكندرونة.

لكنّ قليلاً من الناس يعرفون أنّ فخر الدين هو مؤسّس الازدهار الزراعيّ في لبنان.

وكانت له نقلةٌ نوعيّةٌ في هذا المجال، فقد أدخل الى لبنان ما يُسمّى «الجلالي أو الحفافي» بعد أن أتت بعثةٌ زراعيّة من ايطاليا وعلّمت الفلاح استعمال هذه المدرّجات، من أسفل المنحدرات الى اعلاها، لحفظ التربة في هذه البقع الجبلية.

وكان همّه تقدُّم العمران، فحسّن زراعة التوت وصناعة الحرير، وعزّز الزيتون ومشتقاته من زيت وصابون، عزّز زراعة قصب السكر والقطن والليمون، وأدخل الى لبنان زراعة الكتّان وربّما الموز.

وقد أصبح القطن في طليعة الإنتاج اللبنانيّ وخصّصت مناطق في الشوف لزراعته ولا تزال محالّ بين دير القمر وبعقلين تحمل اسم «مرج القطن».

وقد حاول زراعة الأرز في سهل مرج عيون لكنّه لم ينجح.

وكما ذكرنا كان من أهمّ إنجازات فخر الدين الحضاريّة اهتمامه بتشجير الأراضي والمحافظة على الاشجار الحرجيّة. ولم يقتصر ذلك

على حرج بيروت، فقد قال الدويهي: «عندما تولّى الأمير فخر الدين محافظة آيالة طرابلس أجرى ساقية القاع، وعمّر القليعات في جون عكار، ونصب في حفراتها اربعة عشر الف نصبة توت، ونصب بستانًا آخر أكبر من الأول في ارض طرابلس».

واذا اوردنا كلّ ذلك فلأنّ ولعَ الأمير بالاشجار الحرجيّة وزهور الزينة والعناية بها وتنسيقها جعلته من رواد الحضارة ليس فقط بعهده، وانّما حتى الآن، إذ عمّ مبدأ تنسيق البيئة والمحافظة عليها في انحاء العالم فقد اصبح مطلبًا سياسيًّا اجتماعيًّا في الغرب.

إنّ تراث الأمير فخر الدين جعل من المارونيّة السياسيّة حضارةً لبنانيّةً، فوسّع أفقها، وأقرّ ثوابتها، وأنشأ جيشًا قويًّا ليحافظ عليها.

عزّز المدارس والتعليم لرفع مستوى الثقافة التي من دونها لا يصبح الانسان حرًّا كاملاً.

وبرهن، يوم كان الصراع الطائفيّ الدمويّ محتدمًا في أوروبا، أنه يمكن جمع مختلف التيّارات الدينيّة والطائفيّة ببوتقة واحدةٍ تتعايش بسلامٍ واحترامٍ وتتفاعل ضمن الكرامة.

وكما أثبت أنّه إذا وُضِع الرجل الصالح في المكان الصالح يمكن للجميع الإفادة منه على أكمل وجه.

وتمكّن فخر الدين بسياسته من تحقيق الوحدة اللبنانية وتعزيزها.

ورسم للحضارة اللبنانيّة خطّةً واسعة وخصّها بأفكاره التي كانت رائدةً في أيّامه ولا تزال.

وأسّس الدولة اللبنانيّة لتكون ركيزةً وملجأً لهذه الحضارة.

وقد عشنا طوال أربعة قرون على الأقّل على تراث فخر الدين. وعندما نتناسى هذا التراث بمحاولة بعض المؤرخين أو السياسيّين لضمّ فخر الدين الى هذه الطائفة أو تلك أو لقياس أعماله الساطعة بمقياسنا الصغير، نثبت أنّنا لم نفهم شيئًا عن فخر الدين، وبالتالي لا نستحقّ أن نكون من وارثي تراثه.

وبالفعل اصبح هذا المطلب مطلبًا قوميًّا:

فالدرزيّ هو الذي أسّس دولة لبنان وهي دولته.

وعندما أعلن رياض الصلح الميثاق الوطني بالتعايش في حريّةٍ وتكامل، وعندما أعلن استقلال لبنان عن الشرق وعن الغرب أصبح بذلك من أقطاب المارونيّة السياسيّة. فأيّ سياسيّ مارونيّ كان قد تجرّأ على إعلان الانفصال المصالح المشتركة مع سوريا كما فعل رياض الصلح السنّي، المارونيّ السياسيّ، تطبيقًا لمنهج الاستقلال التام الناجز.

إنّ السنّي رياض الصلح حقّق حلم المارونيّة السياسيّة الذي طالما سعت له منذ مار يوحنا حتى عهد فخر الدين وحاولت إيجاده عبثًا أيام المتصرفيّة والانتداب وهو الاستقلال التامّ الناجز.

الفصل السابع

قواعد المارونيّة السياسيّة

□□ التاريخ لا «التأريخ»

في الكلام عن المارونيّة السياسيّة لسنا بصدد «التأريخ»، ولكنّنا بصدد «التاريخ».

والفرق بين «التاريخ» و«التأريخ» شاسع.

التأريخ يعني Histoire في اللغة الافرنسية و History في اللغة الانكليزية، وهو سرد ما ورد إلينا من أخبار.

وطالما يطول الجدل لمعرفة صحّة هذه الأخبار وحقيقتها وارتباطها بالواقع الموضوعيّ. و«التاريخ» أسلوبه في التحرّي عن هذا الارتباط وهذه الحقائق.

و«التأريخ» هو ما يتصوّره مجتمع حول ماضيه الاجتماعي والاقتصادي واستمراريّة هذا الماضي في الحاضر لأخذ عِبَر ورؤيا للمستقبل.

ليس المهمّ إذا كان الموارنة والمردة قد اندمجوا في كذا سنة من كذا قرن، ولكن المهمّ أن «الذاتيّة المارونيّة» ترتكز على قناعتها بهذا الاندماج.

ليس المهمّ إذا كان للدولة اللبنانية التي أسّسها فخر الدين جميع مقوّمات الدولة كما هو وارد في عرف القانون الدستوريّ، بل المهمّ هو تصوّر الذات في مجرى الأحداث الماضية أي إنّ اندماج **الذاتية المارونيّة بـ الذاتيّة الدرزيّة** نشأ عنه دولة استقلالية مهما يكن مدى هذا الاستقلال واسعًا أو ضيقًا.

إنّ هدف الأبحاث في موضوعنا هي تصوُّر هذه الذاتيّة، وليس سرد ما حصل فعلاً في التاريخ. ومن هنا يُمكن استخلاص قواعد المارونيّة السياسيّة ضمن استمراريّةٍ نضاليّةٍ مدى قرون عديدة.

وكلمة «نضال» هي بمعنى التصدّي للظلم والاضطهاد حفاظًا على الذاتيّة.

والحرب خرّبت كسروان ولكنّ المارونيّة السياسيّة ربحت «حروب كسروان» ليس فقط بالعودة الى كسروان إنما بالمحافظة على «الذات الاستقلالي» كما تدلّ على ذلك أسطورة أو حقيقة لجوء السلطان الى قنوبين التي أوردناها آنفًا. فبالرغم من الخراب والهدم، بقي لبنان ملجأً للمضطهدين لأيّ فئةٍ أو دينٍ انتموا.

ويمكن تحديد قواعد المارونيّة السياسيّة بكلمةٍ واحدةٍ «الحريّة»:
حريّة الارض – حريّة الفرد – حريّة الثقافة (العِلم).

❑ حريّة الأرض

هي أولى ميزات المارونيّة السياسيّة، أي بقعة جغرافيّة حرّة مهما اتّسعت أو انحسرت.

فلذلك لا تهتمّ المارونيّة السياسيّة بالمساحة الجغرافيّة والعدد.

فطالما عاشت في محيطٍ عدديّ اكثف منها بكثيرٍ، وأحيانًا معادٍ لها، ولم تكترث لذلك واستمرّت.

واعتبرت بالتالي أنّ حقّها لا ينبع من العدد، وترى أنّ المقولة الغربيّة بأنّ العدد هو أساس الديموقراطيّة هي مقولة خاطئة بالرغم من

أنّ بعض السياسيّين الموارنة حاولوا دائمًا اللعب على هذه المقولة، والنظريّة الحاليّة في العالم بأنّ الديمقراطيّة الحقيقيّة هي ضمانة الأقليّة من استبداد الأكثريّة جاءت تؤيّد نظريّة المارونيّة السياسيّة.

إنّ المقولة بأنّ العدد سيقلب يومًا ما الحضارة اللبنانيّة هي مقولةٌ خاطئةٌ اخترعها بعض السياسيّين، وخصوصًا الموارنة منهم، لتثبيت مصالحهم مركزين على خوف المجتمع المسيحيّ من اضمحلاله ضمن عددٍ أكبر من غير المسيحيّين وستكون لنا عودة الى ذلك.

إنّ مفهوم الديموقراطيّة الحديثة قطع هذه المرحلة العدديّة، ويتّجه الآن الى المحافظة على حقوق الأقليّة بشتّى الوسائل الديموقراطيّة. ويسعى الى ذلك القانون الدستوريّ من اللامركزيّة الى الفدراليّة.

ويجب ألاّ ننسى أنّ المجتمع المارونيّ والدرزيّ في لبنان يشكل كلٌّ منهما مجتمعًا مميّزًا وفقًا لما حدّده المؤرّخون في فلسفة التاريخ الحديث. ومن صفات هذا النوع من المجتمع العدد القليل بمحيطٍ كثيف.

الأهمّ من ذلك أنّ المارونيّة السياسيّة ترفض عقليّة «حارة النصارى» و«أهل الذمّة» التي كانت سيرة أكثر المسيحيّين في دار الاسلام، لأنها تعتبر نفسها وعن حقٍّ تاريخيٍّ دار الحريّة.

وفي هذا الإطار نظّمت المارونيّة السياسيّة مجتمعها لا على أساسٍ طائفيّ أو دينيّ بل على أساسٍ اجتماعيّ – اقتصاديّ متكامل، واعتبرت هذا التنظيم تنظيمًا مستمرًّا يجمع بين الماضي والحاضر، ويضمن المستقبل برغم كلّ التفاعلات الآنيّة.

وبالفعل فقد نشأت المارونيّة السياسيّة على أرضٍ معيّنةٍ هي جبل لبنان الذي اصبح رمزًا لها، ومنذ عهد مار يوحنا مارون اعتبرت نفسها

مستقلّةً عن القوتين العظميين اللتين تحيطان بها: الامبراطورية البيزنطيّة والخلافة الاسلاميّة، وبالتالي خارجةً عن تنظيماتها الاداريّة، وقد استمرّ هذا الوضع خلال العهود المتتالية:

أ – خلافًا لباقي رؤساء الطوائف المسيحيّة في دار الاسلام كان انتخاب البطريرك المارونيّ غير خاضع للتثبيت أو فرمان من الحاكم المسلم.

ب – إنّ التنظيم العثمانيّ المعمول به في أراضي السلطنة العثمانيّة كافةً بشأن الأملاك العقاريّة، أي نظام التيمارات والزعامات، لم يدخل قطّ الى جبل لبنان.

ج – إنّ التنظيم القضائيّ الذي كان معمولاً به في جبل لبنان منذ عام ٦٨٥م تميّز بالاستقلال التامّ عن كلّ سلطة قضائيّة مركزيّة.

فقد تولّى القضاء في جبل لبنان بجزئيه المدني والجزائي وفقًا للترتيب الآتي:

كان للمقدّم سلطة قضائيّة في القضايا المدنيّة والجزائيّة يساعده معاونون.

وفي حال الاستئناف تُرفع القضية الى البطريرك او الى مطران يكلّفه بها.

وهكذا خلافًا لباقي الطوائف المسيحيّة في «دار الاسلام» التي كان لها استقلالها في قضايا الأحوال الشخصيّة المتعلّقة برعاياها.

إنّ القضاء اللبناني كان له استقلاله بجمع ما يُعرض عليه من دعاوى. وإن كان ذلك من المناطق المارونيّة، ومن ثمّ في باقي جبل

لبنان منذ عهد فخر الدين، إذ كان يتولّى القضاء الدرزيّ الأمراء والمشايخ. واستمرّ الوضع الى عام ١٨٣٥حين أنشأ الأمير بشير الثاني عدلية في المعنى الحديث للكلمة، بتعيين قضاة متفرّغين برئاسة ابنه الأمير أمين.

د – أمّا بالنسبة الى النظام الضرائبيّ فنكتفي بإيراد الوثيقة التالية، وهي عريضة رفعها أمراء ومشايخ لبنان الى السلطان بتاريخ ٢٢ ايار ١٨٤٢م وقد جاء فيها:

«أما الخراج مال الأعناق فقد فرض على المسيحيّين في السلطنة العثمانيّة بدل حماية عرضهم وأموالهم. أما نحن سكان جبل لبنان فلم نكلّف قطّ حكومة الباب العالي لهذه الحماية بل بالعكس كان من عاداتنا حماية ذواتنا.

ومقابله لم يطلب منا السلاطين مال الأعناق ومن السهل تحقيق قولنا هذا بمراجعة سجلات الماليّة».

وقد وقّع هذه العريضة: الأمراء عمومًا وأصحاب الاقطاع الدروز في لبنان وأصحاب الاقطاع المسيحيّين في لبنان والأعيان وأهالي جبل لبنان عمومًا.

ومن مراجعة سجلّات المالية في الآستانة تبيّن صدق أقوال اللبنانييّن. ومن الملاحظ أنّ هذه العريضة وقّعها أصحاب المقاطعات الدروز مما يدلّ أنّ الإعفاء من الخراج كان يعمّ أنحاء الجبل كافةً.

❑ حريّة الفرد

قليلاً ما نُشاهد بالتاريخ مجتمعًا تكرّست به حرية الفرد مثل المجتمع المارونيّ، وذلك يعود لأسباب تكوين هذا المجتمع.

فقد تكوّن المجتمع خارج نطاق سلطة مركزيّة، إن لم نقل ضدّها، وفي بعض الاحيان على خلاف أساسيٌ معها، وفي البداية بحالة حربٍ معها.

فكان بالتالي على هذا المجتمع، وخصوصًا في حالة الحرب، الاتكال على سلاح كلّ فردٍ ونشاطه بدون الحدّ من حريته.

وقد تمكّنت المارونيّة السياسيّة من إحداث هذه المفارقة، وكثيرًا ما يسمّونها **المفارقة اللبنانيّة**.

أي انسانٌ حرٌّ ضمن مجتمعٍ منظّم، ولهذا الانسان امتيازاتٌ وعليه واجباتٌ إلزاميّة ولكن ليست إكراهيّة.

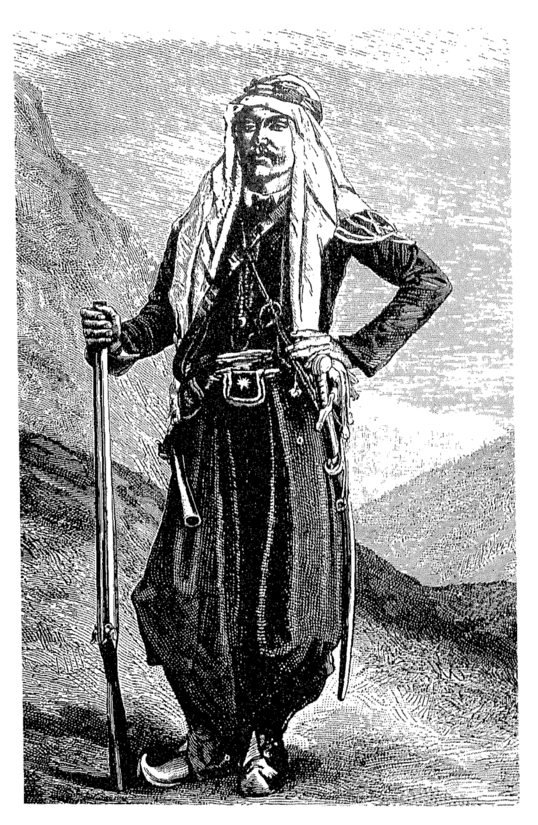
ويُمكن حصر الواجبات بالتعدّد بالآتي:

❑ طرح الصوت

أوّل واجبات الفرد تجاه مجتمعٍ مهدّدٍ هو الدفاع عنه إذا اقتضى الأمر بحمل السلاح عندما يكون الخطر داهمًا.

فكان على كلّ فردٍ أن ينضمّ الى مجموعاته، إن كانت عائليّةً أو على مستوى تنظيم أشمل ليذودَ عن مجتمعه.

وكان عليه عندما يطرأ مثل هذا الخطر ان يصطحبَ سلاحه الفرديّ الذي كان يقتنيه وهو ملكه الخاص.



أمير لبناني

وعندما أصبحت الاسلحة ناريّةً كان المجتمع المصغّر أي «الضيعة» يتحمّل مصاريف تأمين الذخيرة.

وبالإضافة الى سلاحه الفرديّ ان يأخذ معه زاده «الزوّادة» «لكم يوم».

إنّ هذا الالزام لم يكن إجباريًا، لكنه أصبح «واجبًا» ويمكن تلخيصه بالشعر العامي:

«مانندال بالهوشة ولا جـــينا

عند قرع الجرس نعرف واجبنا»

والجدير بالذكر أنّ هذه العادة عمّت باقي المجتمع اللبناني، وأصبحت من تقاليد المجتمع الدرزيّ خاصةً.

كما أنّها استمرّت خلال الأجيال، فقيل إنّ الأمير فخر الدين كان يمكنُه بطرح صوتٍ يجمع ثمانين الف مقاتل. وهكذا في معركة عنجر تمكّن فخر الدين من الانتصار على ستة آلاف جنديّ انكشاري بعسكر البلاد، فأصبحت معركة عنجر فخرًا لفخر الدين.

ويقتضي القول إنّ هذه العادة اللبنانيّة بقيت راسخةً حتى أيامنا هذه، إذ كان لها مفعولها القويّ والجذريّ في الحرب الأخيرة.

❑ المشورة

على كلّ زعيم في المجتمع المارونيّ أن يأخذ رأي الجميع، وعلى كلّ فردٍ أن يُعطيَ رأيه وهذا ما يُسمّى بالمشورة.

وهذه المشورة تشمل حقّ الفرد بانتقاء زعيمه. فلدينا وثيقة من الجيل السادس عشر تتعلّق بانتقاء المقدّم حيث يفرض على الجميع الاشتراك بهذا الانتخاب ليصبح بالصوت الحيّ، وفي حال عدم الاتفاق يُصار الى القرعة.

وهذا بعد أن حدّدت الوثيقة صفات المقدّم، ومنها أن يستشير دائمًا.

□ النوريّة

من إلزامات الفرد بالمجتمع المارونيّ النوريّة.

كان المجتمع المارونيّ – المرديّ معفًى من ضريبة الجزية وفقًا للصلح المعقود مع المردة والجراجمة كما أوردنا آنفًا.

وأصبح هذا الإعفاء قضيّةً حيثانيّة. فكلّما حاولت السلطة المركزيّة فرض ضريبة جابهتها ردّة فعلٍ. وكان التصوّر المارونيّ يردّ ذلك الى دخول المارونيّة إذ إنّ ابراهيم القورشيّ الناسك استفكّ أهالي العاقورة وجبة المنيطرة من دفع ضريبةٍ باهظة، وبهذه الطريقة تمكن من استمالتهم الى الديانة المسيحيّة.

وكان سبب ثورة المنيطرة محاولة حاكم بعلبك فرض ضريبةٍ على الجبل.

وهذا الإعفاء الظرفيّ ليس تصوّرًا فقط، إنّما واقعٌ ملموسٌ كما دلّت على ذلك وثيقة ١٨٤٢م. واعتبرت المارونيّة السياسيّة عدم دفع ضريبة للسلطة المركزية من ميزاتها، ولكن كل مجتمع بحاجة الى مال فكانت «النوريّة».

لا يمكن تسمية النوريّة ضريبةً، إنما نوعٌ من التبرّع التعاونيّ للمجتمع – تبرُّعٌ إلزاميّ –. ففي كلّ سنة بباحة جميع الكنائس المارونيّة في جبل لبنان بأسبوع الآلام من سبت اليعازر حتى سبت النور – ومن هنا اسم النوريّة –، كانت تُجمع اسميًا، وكان للرأي العام والوجاهة دورٌ كبيرٌ في هذه القضية.

فمن لم يتبرّع يصبح منبوذًا – وهذا لم يحصل قطّ – وأما الوجهاء أو من يدّعون الوجاهة فكانوا يزايدون بعضهم بعضًا على التبرّع تحبّبًا أو خشيةً من الرأي العام.

وكان المال يُودَع بكامله لدى البطريرك لتثبُّت الاستقلاليّة الماليّة للبطريرك، إذ خلافًا لما كان يجري مع باقي بطاركة الطوائف المسيحيّة، لم تطلب البطريركية المارونيّة اعترافًا من السلطة المركزيّة، وبالتالي لم تكن تُمنح مساعدات من «بيت المال»[١].

ويُقال إنّ البطريرك حنّا المخلوف سلّم الأمير فخر الدين عام ١٦٠٦م «نوريّة» جبة بشري والمنيطرة، فبلغت ستة آلاف ليرة ذهبيّة، وهو مبلغ كبير بالنسبة الى عدد السكان والزمان.

ولا يزال حتى الآن يُعمل بالنوريّة في بلدة عمشيت في بلاد جبيل ولكنّها تُخصّص للوقف.

---

١. بيت المال: على أثر فتح عمر بن العاص لمصر أسّس أمير المؤمنين عمر بن العاص «بيت المال» لوضع أموال الفتح وصرفها على شؤون المؤمنين. وكانت ما يُسمّى الآن وزارة المالية، وبقيت حتى تاريخ التنظيمات العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر.

وهكذا أصبحت المارونيّة السياسيّة ترتكز ليس فقط على نظريّة فلسفية أو شعريّة أطلقها مُنظِّر، وإنما على وقائع ماديّة ثابتة وان كانت متشعّبة.

□ العونة

من إلزامات الفرد في المجتمع المارونيّ كانت «العونة». والعونة تعني المساعدة دون مقابل ماديّ لأفراد المجتمع للقيام بمهمّاتهم اليومية.

وكان للعونة أصولٌ تقليديّةٌ، فكانت أولاً تُقام عندما يريد الفرد بناء مسكن أو لنقبِ أرضٍ جديدة.

فكان كلّ أفراد القرية يتعاونون على ذلك وكانت، بالإضافة الى العمل، ذات طابع اجتماعيّ إذ إنها كانت تضمّ الجميع الى حفلة طعام.

وكان مبدأ العونة متبادلاً حتى في القضايا اليوميّة من حراثةٍ وزراعةٍ.

وقد وفّر هذا الإلزام بمجتمعٍ مغلقٍ وقاسٍ يدًا عاملةً محليّةً فضمنَ كرامة الفرد لأنه لم يكن يرتبط بصاحب العمل «بعقد عمل» وإنّما بدافع «محبي».

فصاحب العمل هو عاملٌ يعمل مع غيره، ومن الأكيد أنه سيصبح يومًا عاملاً لدى العامل.

وهذا هو الفرق بين العونة والسخرة، فالسخرة إجباريّة يؤدّيها الفرد لسيّد، أمّا العونة فهي عمل متبادل بين أفراد مجتمع يُحافظ بها الفرد على حريّته وحقّه كإنسان. فالعونة اتفاق تضامن وتعاون.

وإنّ كنّا قد بيّنا ما للفرد بالمجتمع المارونيّ من إلزاماتٍ،فهذه الإلزامات متكاملة مع حقوقٍ له تتلخّص بثلاثة:

أولاً: الحريّة السياسيّة – المشورة.
ثانيًا: ما يسمّى الآن النظام الاقتصادي الحرّ.
ثالثًا: حريّة الملكيّة الفرديّة.

❑ الحريّة السياسيّة

إنّ للفرد بالمجتمع المارونيّ الحقّ بإبداء رأيه بكلّ ما يتعلّق بإدارة شؤونه اليوميّة والعامّة.

وقد تكلّمنا عن المشورة.

وتمثّلت هذه الحريّة بحقّه بانتقاء من يمثّله في جميع طبقات الهرم السياسيّ من الشّماس الى المطران الى البطريرك.

ويقتضي القول مع عددٍ من الباحثين أنّ الأساقفة ممثّلين لمجتمعهم، يشكّلون مع البطريرك والمقدّمين نوعًا من مجلسٍ أعلى يُدير المجتمع بجميع شؤونه ويستمدّ قوةً إضافيّةً من التنظيم الدينيّ.

فالاختيار هو الأساس من أدنى سلطةٍ الى المقام البطريركيّ، وإن كان هذا الاختيار يجمع تراتبيّة عائليّة، فللفرد حقّه بإبداء الرأي حتى ضمن عائلته.

وهكذا لا نشاهد بالتاريخ مجتمعًا تكرّست به حريّة الفرد ضمن تراتبيّة مثل المجتمع المارونيّ، ولقد أصبحت حريّة الانسان وكرامته من المبادئ الاساسيّة والثابتة لهذا المجتمع، وهذا ما يسمّى **بالمفارقة اللبنانية** (Paradoxe). فكيف يُمكن الموافقة بين الحريّة الفرديّة والتراتبيّة الجماعيّة. هنا، لا تنفع النظريّات الفلسفيّة إذ إنّ التطبيق العمليّ خلال ١٤٠٠ سنة أثبت نجاح هذا الوضع. وبالرغم من الشوائب العديدة التي تخلّلت

التاريخ وحتى اليوم، سنحاول استخلاص ما يُمكن من الارتباط العضويّ للمارونيّة السياسيّة بالحريّة الفرديّة من ضمن العبَر التاريخيّة.

وهذا لا يعني أنّ هذه الحريّة لم تؤدِّ الى نزاعاتٍ لا تزال تشوب الطبقة السياسيّة المارونيّة.

وكما أسلفنا إنّ تكوين المجتمع المارونيّ بحالةِ صمودٍ مستمرٍ فرضَ كفاءات الفرد على الامتيازات العائليّة: الأجدر هو المقدّم وليس ابن المقدّم.

لكنّ هذه الجدارة يمكن أن تجرّ الى طموحاتٍ شخصيّةٍ تؤدّي الى ايذاء المجتمع. ولنا أمثلةٌ من التصوّر التاريخيّ للمجموعة منذ ثورة المنيطرة حتى المقدّم عنتر ملحمة. فمالك الأسطوريّ قائد ثورة المنيطرة طمع بالإمارة. وعنتر ملحمة المنتصر بحرب المماليك طمع بالحصّة. وكان الرادع الحرم، وقوّة الحرم أنّا كانت تجعل المجتمع يعزل المحروم.

فليس الحرم عقوبةً كنسيّةً ودينيّة فقط، إنّما ذو مغزى سياسيّ شعبيّ يجعل «المحروم» مهما كانت صفاته منبوذًا من شعبه.

وبالفعل فقد لعب هذا التصوّر الواقي دورًا أساسيًا بضبط الطموحات الشخصيّة عندما كان يتفاعل مع اعتقاد المجموعة بأنّ الحرم وُضِع للدفاع عن كيانها.

ومن شروط الحرم أن يكون صريحًا ومطابقًا للرأي العام الجماعيّ لكي يكون فاعلاً.

❑ النظام الاقتصادي الحرّ

قلنا إنّ الرقعة الجغرافيّة الاساسيّة للمارونيّة السياسيّة جبل لبنان

لم تكن بطبيعتها تسمح بوجود إقطاع، إذ إنّ كسب **لقمة العيش** تتطلّب جهدًا فرديًّا إن كان العمل زراعيًّا أم تجاريًّا.

وهنا، لا حدّ لطموحات الفرد إن كانت داخل بقعته الجغرافيّة أو خارجها.

وطالما أنّ الاكتفاء ينبع من موارد خارجيّة، ويجلب المنفعة للمجتمع دون ابتزازه، مطابق لنظريّة المارونيّة السياسيّة، فيقتضي بالتالي تشجيعه وحمايته.

وهذا المنطق سينجم عنه ما يُسمّى في لبنان الآن **الاقتصاد الحرّ** الذي أصبح من ركائز الوضع اللبنانيّ.

ولنا على ذلك مثلٌ ساطع عندما نشأت عام ١٨٦١م المتصرفيّة اللبنانيّة فقد تعهّدت الدول الستّ الضامنة للمتصرفيّة بمساعدتها ماليًّا بمبلغ ٦٠ الف ليرة عثمانيّة ذهبًا، تدفع كلّ دولة عشرة آلاف منها.

وبالرغم من الوعود، لم يُدفع الا جزء يسير من هذه المساعدة ولسنةٍ واحدة – ظنًّا من بعض المراجع أنّ عشرين سنة من الحرب قد دمّرت الاقتصاد اللبنانيّ – رغم ضآلة الضرائب.

ولكنّ الاقتصاد اللبنانيّ عاد الى الازدهار بسبب **المبادرة الفرديّة**، لدرجة أنّ متصرفيّة جبل لبنان كانت عام ١٩٠٥ دائنةً لبعض من الدول السبع بمبلغ مليون وستمائة الف ليرة عثمانيّة ذهبًا. وقد وضع لها بروتوكول خاص عام ١٩١٢م دُعي **بروتوكول اوهانس باشا** حسم نصف الدين المستوجب لحكومة الجبل على أمل أن يُدفع، ولكنّ نشوب الحرب العالميّة الاولى حال دون ذلك.

▢ حريّة الملكيّة الفرديّة

كان من أهمّ ركائز الحريّة الفرديّة داخل الجبل حريّة الملكيّة الفرديّة التي جعلت لجبل لبنان وضعًا خاصًّا بالنسبة لما كان يجري في محيطه.

ولبيان هذا الوضع، يقتضي وصف النظام العقاريّ الذي كان جاريًا خارج الجبل.

وكانت العقارات – خارج القطاعات والمدن – ملكًا للحكومة المركزيّة على الأقل منذ ما قبل الحملات الصليبيّة. واستمرّت الى عهد المماليك والسلطة العثمانيّة «فالأرض وما فيها للسلطان» أي للسلطة المركزيّة، وكانت هذه السلطة تقتطع الأرض وفقًا لمصلحتها من خدمات عسكريّة أو مدنيّة، ويُسمّى هذا النظام **نظام الثيمارات**، وتسمّيه العامة في لبنان «**الأراضي الاميريّة**».

وعند وفاة صاحب التيمار أو مخالفته لواجبات الخدمة تعود العقارات – من حيث المبدأ على الأقل – الى السلطة المركزيّة.

و لم يكرّس حقّ انتقال استثمار الملك للورثة إلا في الجيل التاسع عشر بإرادةٍ سلطانيّةٍ للسلطان محمود رشاد صدرت في ٢٧ ربيع الأول ١٣٣١ هجرية وبقيت الأرض ملكًا للسلطان.

أما في جبل لبنان فكانت العقارات كافةً حتى الأنهر والينابيع وشواطئ البحر أملاكًا خاصة.

حتى أنّ ما يُسمّى مشاعات – على مثال العاقورة وزغرتا – لم تكن مشاعات بالمعنى القانونيّ انما ملكٌ مشتركٌ لكلّ فردٍ من البلدة.

ولا علاقة للسلطة إن كانت مركزيّةً أو محليّةً بملكيّة الأرض لا قانونًا ولا فعلاً.

فالعرف المارونيّ كان يعتمد القانون الرومانيّ — البيزنطيّ وترجمته الناموس الزراعيّ وقد نصّ هذا القانون على أنّ الملكيّة الفرديّة «حرّة— دون حدود وتورث» ، واعتبر أنّ ما يُسمّى المشاع ليس ملكًا للبلدة أو القرية، وإنما ملكٌ لكلّ فرد وفقًا لشروط. وهذا النظام المشاعي عُمل به في الجبل حتى عهد الانتداب ولا تزال بعض الأراضي تتمتّع به حتى الآن.

ويبدو أنّ هذا القانون الذي يُعزى الى مشترعي يوستينيانُس[٢] قيصر جاء به المردة عند قدومهم الى لبنان.

وكلّ جدل حول نظام الملكيّة الفرديّة في جبل لبنان، ومحاولة مقارنتها مع نظام الملكيّة في الأقطار المجاورة، هوجدلٌ سياسيٌّ لا يرتكز الى أيّ تحقيقٍ قانونيّ وخاصّةً انّ قانون الملكية العقارية المعمول به في لبنان حتى هذا التاريخ يميّز صراحةً بين الملكيّة الحرة في جبل لبنان والملكية الأميريّة في عددٍ من الأراضي اللبنانية التي ألحقت فيما بعد بالجبل على مثال قسم من البقاع وعكار والجنوب..

---

٢. يوستينيانُس ١" (٤٨٢ — ٥٦٥): أمبراطور بيزنطيّ ٥٢٧ — ٥٦٥. حاول توطيد وحدة الأمبراطوريّة في السياسة والدين والقانون. أمر بتدوين القوانين الرومانية. كمّل بناء كنيسة آيا صوفيا.

الفصل الثامن

تطوّر المارونيّة السياسيّة

لم تَمُرّ المارونيّة – السياسيّة بعقليّة «حارة النصارى» إنّما أنشأت دار الحريّة، وعلى هذا الاساس تجاوزت العقليّة الطائفيّة وبخاصةٍ المسيحيّة لربط نفسها بتراثٍ أقدم من المسيحيّة، وهي الحضارة العتيقة. ومن هنا نشأت **فلسفة الأرض والشعب.**

□□ حارة النصارى

لا بدّ هنا من توضيح نقطةٍ هامةٍ يمكن إعادة تاريخها الى رسالة توما الكفرطابي: الفرق بين المجتمع المارونيّ وباقي الكنائس المسيحيّة في الشرق أنّ المجتمع المارونيّ ليس مجتمعًا طائفيًا بحارة النصارى التي كانت تصيب الكنائس في الشرق كافةً.

وفي اعتقاد هذه الكنائس انّها تمكّنت من الاستمرار بفضل انغلاقها وبفضل تسامح المسلمين.

وهذا صحيح لأنّ الدين الاسلاميّ متسامحٌ بأصوله تجاه أهل الكتاب وهم في ذمّة المسلمين.

وقد تصرّفت السلطات الاسلاميّة عبر التاريخ، منذ الفتح العربيّ، على هذا الاساس، ما عدا تجاوزات قليلة وان كانت عنيفة.

لكنّ المارونيّة — السياسيّة لم تكن يومًا «حارة للنصارى»، لا واقعيًّا ولا قانونًا كما بيّنا منذ عهد المردة وصلحهم مع العرب، الى عدم طلب البطريرك المنتخب فرمانًا من السلطات، إلى عدم دفع الجزية كما بيّنا في وثيقة ١٨٤٠م.

وهذا الواقع التاريخيّ والقانونيّ هو ما جعل المارونيّة — السياسيّة تتمسّك «بدار الحريّة».

□ دار الحريّة

أما المجتمع المارونيّ ففي تصوّره المبنيّ على الواقع تمكّن من الاستمرار بفضل صموده. وجعل من هذا الصمود خصوصيّةً لها كما

قلنا أرض المارونيّة السياسيّة هي جبل لبنان. ومن ثمّ، كلّ لبنان، حيث تمكن من إنشاء «دار الحريّة» بين «دار السلام» و«دار الحرب».

ولا يمكن لدار الحريّة أن تستمرّ إلاّ بالتطوّر الذي يقتضي مواكبة كلّ عصر. فكان **التطوّر اللغويّ** من الانتقال تدريجيًّا من اللغة السريانيّة الى اللغة العربيّة. وكان **التطوّر الثقافيّ** من بلاط الخليفة في بغداد، الى بلاط البابا في روما، الى العواصم الغربيّة.

وكان ذلك بفضل المحافظة على الحريّات. وقد قفز تطوّر «الذاتيّة المارونيّة» قفزةً نوعيّةً عندما أسّس فخر الدين الدرزيّ الدولة اللبنانيّة في بدء الجيل السابع عشر وصولاً الى إنشاء الجمهوريّة اللبنانيّة، وفي أوائل القرن العشرين الى **ميثاق ١٩٤٣** غير المكتوب الذي كرّس **صيغة تعايش فريدة**.

وصيغة «العيش» الفريدة هذه هي أساس الحضارة اللبنانيّة.

وهذه «الحضارة اللبنانيّة» ربطها التفكير السياسيّ – الاجتماعي بأصالةٍ تعود الى ما قبل المسيحيّة والاسلام، إلى الحضارة الفينيقيّة.

وأوّل من أطلق الفكرة في العصر الحديث كان الأمير فخر الدين الكبير الذي كان يوقّع **أمير فينيقيا**.

وربّما لم تكن هذه الفكرة عند مؤسّس الدولة اللبنانيّة فكرةً عفويّةً أو مباغتةً، إنما يبدو أنّ فخر الدين أراد بها تجاوز الوضع الطائفيّ الذي كان يشكل تهديدًا ضخمًا للدولة التي أسّسها، فبزغت عنده فكرة شعبٍ أصيلٍ وأمّةٍ عريقةٍ تعود حضارتها الى ما قبل المسيحيّة والإسلام. وقد ساعد، كما سنبيّن، على نموّ هذه الفكرة الوضعُ الجيولوجيّ للبنان.

وتبنّت المارونيّة السياسيّة هذه الفكرة فنجم عنها «فلسفة الأرض والشعب».

◻ فلسفة الأرض والشعب

نظّمت المارونيّة السياسيّة مجتمعها على أساس الحريّات الثلاث.

فحريّة الأرض، وحريّة المجتمع، وحريّة الفرد بعقيدته وبملكه وماله، أصبحت حلقةً قائمةً ومتكاملة.

وهذا هو السبب الأساسيّ للنزوح الى الجبل الذي شمل ليس فقط المسيحيّين وإنما الدروز والشيعة، جماعةً وأفرادًا، لما فيه من حريّة الفرد وكرامته تجاه محيط منضوٍ تحت سلطةٍ مركزيّةٍ استبداديّةٍ مطلقة.

فللسلطان، ومن يُمثّل السلطان مهما دنت مرتبته – من الوالي الى صاحب التيمار الصغير – حقّ التصرّف بالأرزاق والأعناق ولو مبدئيًا.

أما في جبل لبنان فـ«الانسان سلطان بحقّه»، وأصبح هذا الحقّ شأنًا ذاتيًا مميّزًا للحضارة اللبنانيّة، وكانت هذه النوعيّة تستند الى واقعٍ تاريخيّ – مادّي – قانونيّ، وليس الى تصوّر ذاتيّ.

نشأت المارونيّة السياسيّة على بقعةٍ معيّنةٍ من الأرض مهما انحسرت، هي جبل لبنان. وقد تطوّرت، كما قلنا، من المارونيّة السياسيّة الى «حضارة لبنانيّة» واستوعبت صيغة تعايش يُقال عنها إنها فريدة.

واعتبرت المارونيّة السياسيّة عندما تطوّرت الى حضارةٍ لبنانيّةٍ أنّ تنظيمها مستمرٌ يجمع بين الماضي والمستقبل بالرغم من التفاعلات الآنيّة في الحاضر.

وأصبح في التصوّر المارونيّ السياسيّ انها تمكّنت من الاستمرار بالمحافظة على استقلاليّة الأرض من خلال تراثٍ يعود الى ما قبل المسيحيّة: وهو التراث الفينيقيّ.

عُرفت الأرض التي قامت عليها المارونيّة بفينيقيا قديمًا. ولا تزال معظم مدن الساحل اللبنانيّ تحمل اسمها الفينيقيّ من العاصمة بيروت الى صيدا وصور وجبيل والبترون وطرابلس.

وعلى هذا الشاطئ ازدهرت حضارة نادرة في العالم القديم.

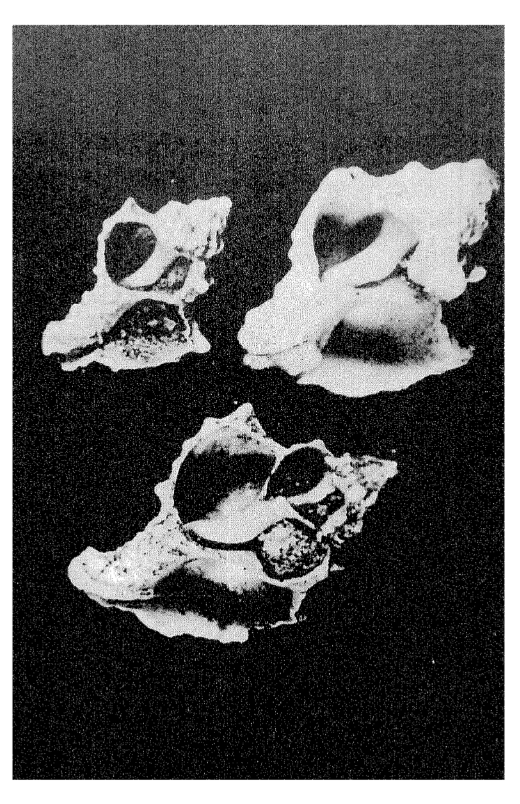
ففي جبيل التي لا تزال تحمل اسمها الفينيقيّ، ومعناه الجبل الصغير، اختُرعت الأبجديّة في الجيل الثامن قبل المسيح.

وكانت صيدا مدينة العلم المتطوّر في تلك الأيّام ويُقال إنّ أهلها وخاصةً قدموس نقلوا العِلم منها الى اوروبا.

أما صور فلا حاجةَ الى التعريف عنها، فهي مدينةٌ كبرى اشتهرت بالمهارة والتجارة والشجاعة، وكانت سيطرتها تمتدّ على كلّ الداخل حتى قيل إنّ اسم «سوري»، وبالتالي سوريا، اشتقّه الاغريق من صور، إذ كان سكان ما سيُسمّى فيما بعد سوريا (بلاد أرام) المسافرون الى الغرب يحملون لقبل صوريّ، أي آتٍ من صور، كما أنّ كثيرًا من الناس كانوا في الجيل التاسع عشر يخلطون بين نيويورك وهي مرفأ الولايات المتحدة وباقي سكان الولايات.

❑ اسم فينيقيا

لا بدّ أنّ اسم فينيقيا يعود الى انها موطن الفينيقيّين، أما اسم



الأرجوان أو الموركس اكتشاف أهل صيدا وصور ومن أهمّ سلعهم التجاريّة

الفينيقيّين فقد طال الجدل حوله. منهم من جعله مشتقًّا من اللون الأرجوانيّ وهو اكتشافٌ لأهل صيدا وصور ومن أهمّ سلعهم التجارية الأرجوان[١]، ومنهم من نسبه الى شجرة النخيل، ومنهم من نسبه الى طير الفونيكس وهو طيرٌ أسطوريّ فينيقيّ كان يحرق نفسه ولا يستسلم ثم يُبعث حيًّا من الرماد ويجدّد نشاطه، وهو ما يميل إليه الاعتقاد لأنّ المدن الفينيقيّة، على مثال صيدا أمام الفاتحين، وصور أمام الاسكندر، ولاحقًا قرطاجة أمام الرومان، فضّلت حرق نفسها على الاستسلام، ومن ثمّ جدّدت شبابها وبُعثت حيّةً.

ولا شكّ أنّ الفينيقيّين سيطروا على القسم الأكبر من البحر الابيض المتوسط بفضل حضارتهم ومهارتهم، وقد أسّسوا أهمّ مدن العالم القديم عظمةً «قرطاجة»، ومعناها المدينة الجديدة أو صور الجديدة.

وممّا لا شكّ فيه أيضًا أنّ بحّارتهم خرجوا من البحر الابيض الى المحيط، ويُقال إنّهم وصلوا الى الشاطئ البريطانيّ واستثمروا المعادن هنالك.

ومن المرجح والمعروف الآن تاريخًا أنهم داروا بحرًا حول القارة الافريقيّة منذ أيام حنّون[٢] والفراعنة، وأصبح من المؤكد كذلك أنهم بلغوا القارة الاميركية وحطّوا على ما يُسمّى حاليًّا الشاطئ البرازيليّ في محلّة براهيبا.

---

١. الأرجوان: صبغٌ أحمر يستخرج من صدف الموركس، مهر في استعماله الفينيقيّون، لا سيّما سكان صور.

٢. حنّون: بحّار قرطاجيّ، أوّل من طاف حول إفريقية بحرًا نحو ٥٠٠ ق.م. ترك وصفًا لرحلته وصل إلينا باليونانيّة.

أما الفينيقيون فلم يعرفوا نفسهم بهذا الاسم،وإنّما كانوا ينتسبون الى صيدون وهو ابن كنعان، وفي كتاباتٍ عدّة يقولون إنهم أولاد صيدون.

قلنا إنّ مسكن الشعب الفينقيّ كان «أرض لبنان»، وإذا كان هنالك جدلٌ حول اسم هذا الشعب فكذلك هنالك جدلٌ حول أصله.

ولكنّ هذا الجدل هو جدلٌ عقائديٌّ سياسيٌّ وليس جدلاً علميًّا. فعلميًّا، منذ القديم وقبل هيرودوتُس أبي التاريخ، كتب الفينيقيّون عن أصلهم واسمهم وموطنهم.

ولنعدّد ما تبقّى لنا من كتاب سيخنتون البيروتي وقد نقله اوزوبيوس مطران قيصريّة نقلاً عن فيلون الجبيلي، ومن مراجعة هذا النصّ، يظهر جليًّا أنّ حضارة الفينيقيّين، سكان هذه البقعة الأرضيّة منذ قديم الزمن، سبقت حتى الحضارة المصريّة.

ومن الملاحظ أنّ سيخنتون، الذي عاش وكتب قبل حرب طروادة وقبل موسى باللغة الفينيقيّة، يروي أنه أخذ ما كتبَ عن كتب الهيكل المكرّس لسلالة بعل في بيروت، أي أربعة آلاف سنة قبل المسيح على الأقلّ.

ويُمكن الاستنتاج ممّا وصل اليه العلماء في عصرنا الحديث لجهة هؤلاء الفينقيّين، ما يأتي:

أ – إنّهم سكان هذه البلاد الأصليّون مهما كان اسمهم ومهما كانت سلالتهم.

ب – إنّ المقولة بأنهم أتوا من الجزيرة العربيّة، أو الخليج الفارسيّ، أو البحر الأحمر، تبدو مقولةً عقائديّةً وليست علميّة.

والقول إنّه يوجد في تلك البلاد أنقاش محلات أو مدن تحمل اسم صور وأرواد وجبيل هو صحيح، ولكنّه إن دلّ على شيء، فإنّه لا يدلّ على أنّ أصل الفينيقيّين من هنالك، بل يدلّ على أنّ الفينيقيّين امتدّوا أثناء أسفارهم الى تلك الأمصار، كما فعلوا بغيرها من القارة الأرضيّة، وبنوا محلاّتٍ تحمل اسم المحلاّت الأمّ، خصوصًا إذا كان هنالك تشابهٌ بالواقع الجغرافيّ.

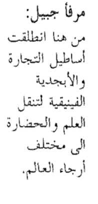
والبرهان على ذلك مقارنةً مع ما حدث في الغرب بعد اكتشاف القارة الاميركية واستطلاع افريقيا.

إن مدنًا كثيرةً في القارّة الاميركيّة تحمل اسم مدنٍ أوروبيّةٍ عريقةٍ، وعلى سبيل المثال وليس الحصر: «نيويورك»، «نيواورليونز»، وهذا لا يعني أنّ أهالي يورك أو أورليونز أتوا من أمريكا.

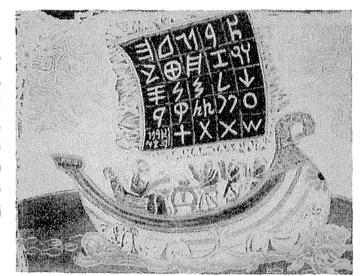
كما أنّ إعطاء أسماء بلجيكيّة لمدنٍ في الكونغو بأفريقيا لا يعني أنّ أهالي البلجيك أصلهم من افريقيا، إنّما يدلّ على أنهم استعمروا افريقيا.

وقد تبيّن للعلماء، على مثال سباتو مسوكتي وغيره، أنّ المحلاّت التي تُدعى صور أو صيدا في الخليج العربيّ أو في شبه الجزيرة العربيّة ليست أقدم من صور أو صيدا أو جبيل أو بقيّة المدن على ساحل البحر المتوسّط، بل إنّ المدن الفينيقيّة على هذا الساحل هي أقدم بألوف السنين، وكتِب عنها،كما أشرنا، وعن نشوئها آلاف السنين قبل المسيح، فيما المدن المستحدثة لا يعود تاريخها إلاّ لسنة ٨٠٠ ق.م.

وهنا تكمن أهميّة المؤرّخين القدماء مثل سيخنتون وهيرودوتس وأوزيبيوس وغيرهم، إذ أرّخوا عن واقع لا يشوبه أيّ تطلّع عقائديّ.



مرفأ جبيل:
من هنا انطلقت
أساطيل التجارة
والأبجدية
الفينيقية لتنقل
العلم والحضارة
الى مختلف
أرجاء العالم.



ج – إنّ القول بالعرق الصرف هو قولٌ عقائديّ لا علاقة له بالواقع العلميّ وخاصةً بالنسبة الى سكان هذه البلاد.

ومن مراجعة التاريخ، يتبيّن أنّ شعب الساحل اللبنانيّ امتزج مرارًا عديدةً بغير شعوبٍ أتت أفرادًا أو جماعاتٍ من الشرق أو من الجنوب وحتى من الشمال (شعوب البحر).

وإنّ هذه الشعوب امتزجت بالسكان الأصليّين، وخاصةً أنّ الحضارة الفينيقيّة كانت تفوق بكثير عادات هذه الشعوب، حتّى ولو كانت غازية، أما الافراد المهاجرون فإنّ دمجهم سهلٌ جدًّا.

د – هنالك مقولةٌ أخرى، وليست أخيرة، بأنّ الفينيقيّين قد انقرضوا تحت وطأة الغزاة وتقلّبات الزمن والدول.

فمن الثابت في فلسفة التارخ أنّ الغازي مهما كان عدده يمكنه السيطرة ولكن لا يمكنه أن يُلاشي شعبًا.

والتاريخ غنيٌّ بهذه الأمثلة من انتشار الحضارة الرومانيّة على برابرة الغرب الى دخول النورمان الى انكلترا والى غيرها...

فكيف بالفينيقيّين، وقرطاجة قد أعطت مثلاً حيًّا عنهم وعن حيويّتهم للنهوض. فبعد أن دمّر الرومان أكثر من مرّة هذه المدينة الفينيقيّة من أساسها، وبذروا على أرضها الملح كي لا ينبت العشب، انتعشت مجدّدًا كطائر الفينيق وعادت مدينة العمران والثقافة والأدب. وإن نَنسَ لا ننسَ أنّ أكبر الآباء المسيحيّين القديس أغوسطينوس ابن قرطاجة.

□ طابع «الانسان» الفينيقيّ

بقي الجدل قائمًا حول تسمية الفينيقيّين أو أصلهم، فهنالك شبه إجماع منذ هيرودوتُس، الى هوميروس، الى الاغريق، الى الرومان، عن طابع الإنسان الفينيقيّ. فهو مكتشفٌ بارعٌ، تاجرٌ ماهرٌ، سياسيٌّ محنّكٌ ومقاتلٌ باسل:

١ - **مكتشف ومخترع بارع**: يعزو سيخنتون اكتشافاتٍ كبيرةً وحيويّةً الى «ناس من بلاده» نعتهم فيما بعد باقي الشعوب بآلهة.

لكنّ مؤرّخنا يصرّ على أنهم من بني البشر ومن جنسه الفينيقيّ. وأهمّهم حسب رأيه هو الذي صنّع من الحديد آلات صيد السمك، وأوّل من سار على وجه الماء بسفنه، ولهذا بعد موته اعتبر إلهًا كبيرًا خاصةً في صور وهو «ملكارت»، أي ملك الأرض، ومن سليلة ملكارت كان «توتوس» الذي اخترع الأبجديّة، و«توتوس» أصبح إلهًا كبيرًا عند المصريّين باسم «توت» ومن ثمّ الاغريق باسم «هرمس».

ويبدو حسب رأي سيخنتون وأقواله، وخلافًا لما يُدلي به فيما بعد، أنّ الاثني وعشرين حرفًا التي اخترعها «توتوس» كانت تحليلاً لنبرات الصوت الانسانيّ حلّت محلّ الألوف من الصور والرموز التي كانت تُستعمل في باقي الكتابات القديمة كالمصريّة والمسميريّة التي ما تزال حتّى الآن تُستعمل في الكتابة الصينيّة واليابانيّة.

وإن كانت الأبجديّة هي أهمّ اختراع فينيقيّ وأشهره فلم تكن هي الوحيدة. وسأسرد بعد ما قيل عنهم في أيامهم:

يقول يوريدوتيوس: «إنّ الاختبارات الكيماويّة التي حلّلت الذرّة

الأساسيّة من أصل الحياة قام بها العلاّمة موسكوس الذي عاش في صيدا في الجيل الثالث عشر قبل المسيح».

ومثال على العلم الفينيقيّ بالكيمياء القضية التالية:

يعلم الجميع أنّ الفينيقيّين اشتهروا بصناعة الأرجوان، وقد وفّقوا الى ابتكار نوع من الصباغ الأرجوانيّ النادر، ونُسب اختراعه الى ملكارت الذي تحدّثنا عنه آنفًا إله صور.

وقد استقرّ القول على أنهم كانوا يستخرجونه من صدف الموريكس المتكاثر على شاطئ صور، وكان لونه أحمر بنفسجيًّا تنافس الناس وخاصةً الملوك على لبسه.

وفُقِد سرّ الأرجوان، وفي الجيل التاسع عشر حاول لورد سلسبيري بعد رويموار العالم الفرنسي الشهير أن يقلّدا صناعة الأرجوان باستعمال الموريكس، ولكنّهما لم يصلا الى النتيجة التي كانت عند الفينيقيّين، مما يدلّ على أنه كان لديهم عِلمٌ في الكيمياء أكثر مما كان لدى أهل العلم في الجيل الثامن عشر والتاسع عشر بعد المسيح.

وكذلك بالنسبة الى **الزجاج الشفّاف** الفينيقيّ، وهو الآن في زينة متاحف العالم. ومن أروع الابتكارات الفينيقيّة ما قاموا به **في الفنّ المعماريّ.**

ويُقال إنّ بتاغوراس أول من طبّق هذا الرقم على البناء، فأصبح المهندسون الفينيقيّون يُتقنون هذا الفنّ «بإقامة بناء على سبعة عواميد».

وهكذا هندس حيرام الصوريّ هيكل الربّ في أورشليم للملك سليمان، ومنه أتت العبارة في الكتاب المقدّس «وبنت بيتها على عواميدها السبعة».

والكلّ يعلم، بالاضافة الى ذلك، أنّ الفينيقيّ استند الى معرفة بالشمال الجغرافيّ فكان يقود سفنه حتى في الليل[٣].

وقبل الانتقال من حقل الاكتشافات، فإنّه لا بدّ من الكلام على الزراعة وقد جعل منه الفينيقيّون فنًّا قائمًا بحدّ ذاته.

ويبدو أنهم هو أوّل من استعمل **التسميد** فأعطت الأرض ١٥٠ في الواحد، وعلى قول هيرودوتس أعطت الزراعة في قرطاجة ٣٠٠ بالواحد، ولكنّ المهمّ هي دراستهم الزراعيّة وكتبهم حول الزراعة.

فقد اشتهرت هذه الكتب في العالم القديم، وخاصةً **رسالة ماجون**[٤]، لدرجة أنّ الرومان قرّروا بناءً لطلب عضو مجلس الشيوخ الروماني **تدمير قرطاجة**، فقد طلب هذا الاخير من قائد الحملة الرومانيّة «سيبون امليان» انقاذ هذه الرسالة من التدمير. وهكذا كان، فأخذ القائد الرومانيّ مخطوط الرسالة الى روما، وقرّر مجلس الشيوخ الرومانيّ ترجمتها الى اللغة اللاتينيّة ونسخها نسخٍ عديدةٍ وتوزيعها على كبار المزارعين. وهكذا نجت من التلف.

---

٣. اكتشفت في صيدا تحت أساس قصر الملك لويس آثارٌ فينيقيّة تعود الى القرن العشرين قبل المسيح، عندما كانت بعثةٌ علميّة فرنسيّة في العشرينيّات من هذا القرن تنقب عن الآثار، وفيه رسم سفينة فينيقيّة.

كذلك في سهل عدلون، وفي قبرٍ فينيقيّ وبحالةٍ ممتازة، وجِد رسمٌ لسفينة فينيقيّة مشرّعة السواري. ولفت نظر البعثة العلميّة أنّ مواصفات هذه السفن من صناعةٍ وشكلٍ وتقاطيع كانت ذاتها من أيام الفينيقيّين حتى تاريخ استعمال القوّة البخاريّة للملاحة في أوائل القرن التاسع عشر.

٤. ماجون (١٤٠ ق.م.): أبو الاقتصاد الزراعي. ألّف ٢٨ مجلّدًا عن الزراعة لم يبقَ منها سوى بعض المتفرّقات.

٢ - تاجر ماهر: من المُسلّم به علمًا وتراثًا وجدلاً، مهارة الفينيقيّ بالتجارة - من التبادل التجاريّ الذي يبدو أنه بدأ بإبدال خشب لبنان بنحاس مصر، الى بناد المستعمرات ولكن بالمعنى التجاريّ وليس بالمعنى العسكريّ، الى رحلاتٍ حول العالم، حتى أنّ البعض عزا جميع أعمال الفينيقي الى مصلحته التجاريّة، وإن كان هذا غير صحيح.

وبالرغم من أنّ التجارة ذاتٌ فرديّة، لكنّها كانت في الوقت نفسه طريقةً لنشر الحضارة الفينيقيّة، فحيث كان التاجر الفينيقيّ يمرّ كان ينقل معه الحضارة المميّزة، حضارة العمران والتطوّر.

ومن أهمّ إنجازات الفينيقيّ، بالاضافة الى الأبجديّة، هي السوق التجارية - النقدية (البورصة)، التي لا تزال حتى الآن تحمل اسم تلة بيرسا في قرطاجة حيث كانت تتمّ المبادلات بالبضاعة والعملة.

ويكفي الفينيقي فخرًا أنه اكتسب لقب امير التجارة وتاجر الملوك.

وفي المعرض الدوليّ الذي أقيم في نيويورك عام ١٩٣٩م. عُرضت في الجناح الايرلنديّ لوحةٌ من الرخام كتِب عليها: «نحن أوّل من أهل غرب أوروبا دخل الينا التمدّن والعمران بفضل الملاّحين - التجار الفينيقيّين الشجعان من صور وصيدا».

٣ - سياسيّ محنّك: تميّزت هذه التجارة بسياسة الفينيقيّ في جميع مدنه ومستعمراته مع جميع الشعوب التي كان يحلّ بينها، إذ قام بصيغة تعايش مرتكزة على التفاهم الحضاريّ وليس على الدين أو القوة العسكرية، لأنّ التبادل الحرّ يأبى الفرض. وهكذا انضمّت شعوبٌ عديدةٌ في حوض البحر الأبيض المتوسط طوعًا واختيارًا. وهذه المرونة السياسيّة التي لقّبها الاغريق والرومان بالحنكة والدهاء كانت من صفات

الفينيقيّ في بلاده الأصل ضمن ثنائيّة حربية ممثّلة في الحكم والمعارضة. فكلمة حزب تعني عند الفينيقيّ الأهل.

وهنالك رأي الملك سليمان الذي قال للمهندس حيرام الصوريّ: «الفرق بيننا هو أنّ عندنا الملك هو الشعب بينما عندكم المدنيّة – ويعني بها الشعب – هي الملك».

وبالفعل كان نظام الحكم في المدن الفينيقيّة بيد مجالسها، وإن كان على رأس المدينة ملكٌ يملك ولا يحكم، وقد تجلّى ذلك في دستور قرطاجة حيث كانت السلطة العليا محصورةً في مجلس أعلى يُدعى مجلس السقط اي القضاة.

وقد قال الخطيب الرومانيّ البليغ شيشرون[٥] عن هذا النظام: «إنّ دستور الفينيقيّين هو أثبت وأحسن دستور في العالم».

٤ – المقاتل الباسل: هذه الحنكة السياسيّة والمرونة التجاريّة لا تمنعان الفينيقيّ من أن يصبح مقاتلاً باسلاً عند الاقتضاء، خاصةً عندما تتّخذ حربه طابعًا ضدّ القهر.

ودون التوقّف عند شجاعة آل برقة من **همليقار** الى **هنيبال** الذي يُعتبر من أكبر القادة العسكريّين في كل زمان، سنتكلم عن واقعين في التاريخ وبإسهاب:

أ) حصار صور: كان **الاسكندر المقدونيّ**، المعروف عند الشرقيّين

---

٥. شيشرون Cicéron (١٠٦ – ٤٣ ق.م.): أكبر خطيب وكاتب ومفكّر عرفته روما. تعاطى السياسة. من أشهر مؤلّفاته: دفاعه عن مورينا وميلو ومرافعاته ضدّ كاتيلينا وڤريس، وكتبه «في الدولة» و«في الشيخوخة» و«في الشرائع» وخطبة ضدّ أنطونيوس المعروفة بالفيليبيّات.

بـ«اسكندر ذو القرنين»، قد دوّخ العالم بانتصاره على الفرس بمعركة ايسوس التي فتحت له ابواب الشرق الأوسط.

سار من خليج الاسكندرونة التي أسّسها بالغرب من ايسوس على طول الساحل الفينيقيّ، بدون مقاومةٍ أو معارضةٍ، وكانت المدن تستقبله بالترحاب حتى صيدا.

وعندما وصل الى صيدا أرسل اليه الصوريّون وفدًا وهدايا. ولكنّه أصرّ على دخول المدينة كفاتح وإقامة الذبيحة في هيكل ملكارت.

فرفضت صور وقاومت، ودام الحصار من أوائل عام ٣٣٢ ق.م. حتى أواخر شهر آب.

وكانت صور جزيرةً تبعد أكثر من نصف كيلومتر عن الشاطئ يُحيط بها سورٌ منيعٌ يبلغ علوّه العشرين مترًا.

وكان الدنّو منه يبدو مستحيلاً، فعمد الاسكندر الى بناء جسرٍ يصله بالشاطئ،وأمر بهدم صور القديمة أي عدلون ونقل حجارتها. وكان يُناظر البناء بنفسه، وقد سخر منه أهالي صور ومن عسكره قائلين: «ما أجمل ان نرى هؤلاء الغزاة الذين دوّخوا الفرس وسائر الامم ينقلون الحجارة على ظهورهم كالدّواب!».

وبالرغم من أنّ الاسكندر قد اجتاح صور فإنّ أهلها قاوموا هذا الفاتح، على حدّ قول «سترابون»[٦]، أعنف ممّا قاومته جميع بلدان آسيا.

---

٦. سترابون Strabon (نحو ٥٨ ق.م.): كاتب يونانيّ وُلد في قبادوكيا. له «مذكرات تاريخية» تمتاز بالدقّة الجغرافيّة.

ب) أما المثل الثاني فهو من الحرب البونية الثالثة: عندما قرّر الرومان تدمير قرطاجة، وحاصر «سيبون امليان» المدينة التي اصبحت معزولةً وشبهَ مجرّدةٍ من السلاح، قرّر أهل قرطاجة المقاومة، وبذلوا في سبيل ذلك كلّ غال ورخيص، حتى أنّ نساءَهم قصّت شعر رؤوسهنّ لتُصنَع منه حبالٌ لاستعمالها في الحرب.

وعندما تمكّن الرومان من فتح ثغرة في السور ودخول المدينة، دافع أهلها عن كلّ شبرٍ من أرضهم، شارعًا فشارعًا، بيتًا فبيتًا، وصعدت النساء الى سطوح النازل يرمينَ الزيت المغليّ على الرومان، ومنهنّ من أحرقت نفسها كي لا تقع في أسر الرومان. وأظهر أهل قرطاجة من الشجاعة والاستبسال ما جعل القائد الرومانيّ يقول: «هؤلاء التّجار عرفوا أن يموتوا كأبطال».

هنالك حقيقةٌ لا يمكن الرجوع عنها وهي أنّ طابع اللبنانيّ الحاليّ لا يختلف عن طابع الإنسان الفينيقيّ.

وهذا بالإضافة الى أنّ المدن اللبنانيّة حافظت على أسمائها الفينيقيّة، مما جعل من «فلسفة الأرض والشعب» تصوّرًا واقعيًا لحالة لبنان الحاضرة، ونشأ عن المارونيّة السياسيّة **كيانٌ جديدٌ** يمكن تسميته كما قلنا بالحضارة اللبنانيّة.

إنّ الارتباط بالفينيقيّة لم يكن حديثًا، ولم يكن وفق المقولة السائدة من صنع الغرب، وخاصةً الأب اليسوعيّ لامنس، كما يحلو لبعضهم التغنّي به.

ولم يكن هذا التصوّر من صنع الانتداب الفرنسيّ لغايةٍ بنفسه.

ويمكن القول إنّ هذا التصوّر ليس تيّارًا معاديًا للتيّار العربيّ كما يرتئي لبعضهم وصفه.

عندما يدّعي أهل مصر ارتباطهم بالحضارة الفرعونيّة، وعندما يدّعي أهل العراق ارتباطهم بحضارة سومر التي قامت أربعة آلاف سنةٍ قبل المسيح، فلماذا لا يحقّ للبنانيّ أن يتصوّر جذورًا فينيقيّةً إذ إنّ الأرض والانسان لهما الطابع ذاته؟

وهل إنّ الارتباط بجذور حضارةٍ تعود الى ما قبل المسيحيّة والاسلام يُعتبر جريمةً، وبخاصةٍ عندما يجعل كيانَ لبنان الحالي يتطوّر الى حضارةٍ أمثل وأقوى بفضله؟

فبعد الحروب النابوليونيّة وإحلال السلام في اوروبا أتى الى بلادنا بالاضافة الى المستشرقين تجّارٌ كان همّهم الحرير والبضاعة، فوجدوا في لبنان طبقةً مثقّفة تتكلّم لغتهم وتتفهّم عاداتهم.

وهذا ما ساعد على جعل بيروت مرفأً لسفنهم، ومستودعًا لبضاعتهم، ومركزًا تجاريًّا لهم.

وإنّما كان من الطابع الفينيقيّ لدى أهل بيروت أنهم لم يقبلوا أن يكونوا موظّفين لدى التجّار الأجانب. وسرعانَ ما أصبحوا مشاركين، ومن ثمّ جعلوا أنفسهم أرباب هذه الشركات التجارية.

وهذا هو عنوان بيروت باب الشرق وبيروت جسر بين الشرق والغرب.

وهوذا ما سمّاه كيدًا الاجنبي، وخاصةً التاجر الاجنبيّ، بالمشرقيّة.

وهذا ما أعطى المارونيّة السياسيّة تطوّرًا جديدًا، اذ إنّ أكثريّة سكان بيروت من النصارى ينتمون الى طائفة الروم إن كانت

اورثوذكسيّة أم كاثوليكيّة فأعطوا الوجه الاقتصادي الرائع بالتحوّل الى انفتاح أكبر، وبما أنّ التجارة معاملة فكان رائد المشرقيّ الاعتدال وإشراك من يلزم بأعماله لأيّة طائفة انتمى.

ورافق ذلك تحوّلٌ اقتصاديّ في العالم الغربيّ الذي كان أصبح بحاجةٍ ماسةٍ الى أسواق جديدة وواسعة لبيع بضاعته، وبالطبع أصبحت بلاد الشرق المكتظّة بالبشر والخالية من صناعة السوق، مستحبّةً لديهم لترويج بضاعتهم ومبادلتها. وكان «المشرقيّ» الأجدر بهذين الترويج والمبادلة.

ونشأت عن ذلك أرضيّةٌ اقتصاديّة وماليّة متينة، عزّزها تحديث مرفأ بيروت وشبكة طرقات بين بيروت والشام.

الفصل التاسع

مستقبل المارونيّة السياسيّة

نشأت المارونيّة – السياسيّة منذ حوالى ١٤٠٠ سنة، ولا تزال حتى الآن حيّةً ونشيطة.

والدليل على ذلك الهجومات التي تتعرّض لها من الخارج ومن الداخل.

□□ الخارج

كلمة الخارج لا تعني من خارج الأراضي اللبنانيّة بالرغم من أنّ كلّ سلطة خارجيّة لا تؤمن بالحريّة.

وكلّ سلطة خارجيّة مبنيّة على التفريق الدينيّ أو العنصريّ تعتبر «دار الحريّة» خصمًا إن لم نقل عدوًّا لها.

ولكنّ كلمة «خارج» تعني خاصةً بعض المنظّرين والمحلّلين الذين يعتبرون أنّ المارونيّة – السياسيّة تناقض أفكارهم ونظريّاتهم وهم يعتمدون الآساليب التالية للنيل منها:

أ) التشكيك بركائزها التاريخيّة وبدولة لبنان فخر الدين.

ب) التذكير بالطابع الجزئيّ لاستقلال دولة فخر الدين والأمراء اللبنانيّين، وذلك بالمقارنة بمنظار غربيّ معاصر مع دولة فخر الدين التي قامت منذ أجيال.

ج) تجاهل كلّ نصّ تاريخيّ وإن كان قانونيًّا يُثبت خصوصيّات المجتمع اللبناني في محيطه، وعلى سبيل المثال الجدل والتنظير القائمان حول نظام الملكية العقاريّة في الجبل.

وكذلك بالنسبة الى عدم فرض الجزية والخراج على موارنة الجبل منذ الفتح العربي حتى عهد المتصرفيّة.

د) إنكار البنية الاجتماعيّة في الجبل وتجاهلها، وكذلك المورثات والتقاليد الشفهية التي جعلت من هذا المجتمع ملجأً لكلّ أقليّة عرقيّة

أو دينيّة حاولت العيش بحريّة بعيدة عن تعسّف سلطة مركزيّة. إنّ الجبل لم يكن كما بينّا ملجأً للمسيحيّين فقط، بل لكلّ مضطهدٍ. ففي العصور الغابرة تمّ لجوء الأمير متّى الدرزي الى كفرمتى، ومن ثمّ، وفي عهد الأمير بشير الثاني انتقل دروز منطقة حلب الى جبل لبنان، وفي العشرينيّات توطّنت الجالية الأرمنيّة في لبنان.

ولذلك سببان:

بالنسبة الى الغرب: إنّ المجتمع المارونيّ – السياسيّ رفض استبعاده منذ عهد الصليبيّين حتى في أيام الانتداب الفرنسيّ واستخدامه لمصالحهم ويعود السبب بالنسبة الى بعض المفكرين الشرقيين المسيحيّين تجاهل كلّ ما يثبت خصوصيّة المجتمع المارونيّ – السياسيّ «هو عقدة الرفض» تجاه تفوّق المارونيّة – السياسيّة، اذ إنّ مجتمعهم برغم عراقته والمحافظة على تقاليده وعدده، لم يتمكن من الخروج من وضعيّته وعقليّة حارة النصارى – فيلجأون الى «دار الحرية» ويحاربونها من الداخل.

❑ الداخل

عندما نقول في الداخل، نعني نواقص الطبقة السياسيّة المارونيّة وعيوبها. فما هي؟

❑ نواقص الطبقة السياسيّة المارونيّة وعيوبها

عندما نتكلم عن الطبقة السياسية المارونيّة نعني بها طبيعة السياسيّين، واكثريتهم من الموارنة، الذي تعاقبوا على الحكم او تبادلوه منذ اواخر عهد المتصرفية والحرب العالميّة الاولى حتى الآن.

وهؤلاد ينتمون عقيدةً[١] الى آخر مقدّمي بشري في الجيل السادس عشر الذين خرجوا عن أصول المارونيّة السياسيّة طمعًا بمنافع آنيّة.

فتبعًا لهذه العادة يحاولون دائمًا الاستعانة بالغريب لتثبيت نفوذهم على مجتمعهم.

وكلمة «غريب» هنا لا تعني فقط الاجنبي إنما الأفكار المستوردة – وهذا الاخطر – لفرضها كما هي دون الاخذ بعين الاعتبار تكوين وتراث المجتمع الذي ينتمون اليه.

وعملهم او تعادلهم هذا وإن بدا ناجحًا آنيًا يؤدّي بالنهاية الى نبذهم من مجتمعهم الذي أثبت خلال التاريخ، وخاصةً عند الموارنة، مقدرته على استبدال طبقته الحاكمة عندما يحصل تناقض جذريّ بين مصلحة هذا المجتمع والفائدة الشخصية لهؤلاء.

وهذه الطبقة تحاول دائمًا تشكيل عائق أمام التطوّر الطبقي من المارونية السياسية الى حضارة لبنانية.

▢ المعوقات أمام تطوّر المارونيّة السياسيّة

إنّ مشكلة تطوّر المارونيّة السياسيّة أتت دائمًا من الطبقة السياسيّة

---

١. لا يمكن القول «عقيدة» إنما «تصرُّف» تقول التقاليد إن فخر الدين كتب إلى الشيخ أبو نوفل الخازن حاكم الشمال وقائد قلعة اسمرجبيل:

عاشينا ووالده شلهوب (مقدّما بشري) عاثوا في البلاد الفساد وحتى لا يكثر القيل والقال ولأنهم من ملّتك دبّر الحال. فاستدعى الشيخ أبو نوفل عاشينا الى اسمرجبيل وقتله وطرحه تحت جسر النهر الغربي وعندما حضر شلهوب ليسأل عن أبيه قتله أيضًا ودفنه في المكان نفسه ومن تلك الأيّام يسمّى هذا الجسر «جسر المدفون».

– المارونيّة، وذلك منذ صراع مقدّمي بشري مع البطريركيّة المارونيّة، فعندما تتوصّل هذه الطبقة الى الحكم تسعى دائمًا الى غرضين: ديمومتها بالحكم حتى التوارث، وتلبية مصالحها الظرفيّة، ولكي تبقى لها استمراريتها فمطلبها أن يُغلَق المجتمع المارونيّ، ومن ثم المجتمع اللبنانيّ، أمام كلّ تطوّر خوفًا من أن يفقدها هذا التطوّر مركزها.

فهي تريد مجتمعًا جامدًا مُغلَقًا سياسيًّا واجتماعيًّا، منفتحًا نوعًا ما اقتصاديًا، وخاصةً تجاريًّا.

ولذلك انبثقت مقولتا **الخوف والعدد.**

الخوف: بعد «حروب كسروان» وحتى الآن طرحت الطبقة السياسيّة مقولة الخوف المبنيّة على اضطهاد المسلم للمسيحي، مستندةً على أنّ الجبل كان ملجأ المسيحيّين هربًا من اضطهاد المسلمين خالقةً تصوّرًا جماعيًّا لهذه الغاية التي تتنافى مع الحقيقة كما بيّنا، إذ إنّ نزوح الموارنة حوالى سنة ألف للمسيح كان هربًا من الاستبداد البيزنطيّ، عندما عادت السلطة البيزنطيّة الى انطاكية وحلب وسهول سوريا، وليس للاضطهاد الدينيّ الاسلاميّ.

ومتناسيةً كذلك أنّ الخلاف بين الموارنة والصليبيّين كان ردّة فعل على استبداد مسيحيّين للمسيحيّين.

وأمّا «حروب كسروان» فقد قامت بها دولة المماليك المركزيّة ضدّ طوائف اللامركزيّة من موارنة ودروز وشيعة، وان كانت أكثريّة سكان كسروان في ذلك الحين من الموارنة.

وكانت تلك العقدة ذات فائدة مزدوجة لمروّجيها، فتجاه أبناء طائفتهم هم حماتها، وإزاء الغير هم ممثّلو طائفتهم، مما يتبع ذلك من منافع آنيّةٍ وشخصيّةٍ من السلطة المركزيّة الحاكمة.

وإن كان فخر الدين أزال هذه العقدة بإزالة مقدّمي بشري، فقد عادت وتجدّدت عند إنشاء الجمهوريّة اللبنانيّة في العشرينيّات من القرن العشرين بفعل العوامل التالية:

أ) لجوء عدد كبير من الطوائف المسيحيّة من بلاد الشرق الى لبنان أثناء بدء الانتداب الفرنسيّ، وقد جاءت بهم عقدة «حارة النصارى» وما عانوه من الحكام في بلادهم، فاستوطنوا المدن والساحل بالقرب من المسلمين بعقلية «أهل الذمّة».

ب) وتزامن ذلك بالخمسينيّات من هذا العصر مع نزوح كبير من الموارنة الى المدينة لأسبابٍ اقتصاديّةٍ وللتركيبة المركزيّة للدولة اللبنانيّة في ذلك الحين.

فهؤلاء النازحون خرجوا من اطرهم التقليديّة التي كانت بمثابة ما يسمّونه في الغرب - الدولة - والتي كانت تؤمّن حياتهم اليوميّة، وإن كانت هذه الأطر درزيّة مثل آل جنبلاط وأرسلان في الجبل، أو شيعيّة مثل آل حمادة في الهرمل، وإن كانت سنيّة مثل آل مرعبي في عكار، فأصبحوا أو اعتقدوا بسبب هذا النزوح أنهم أصبحوا بدون حماية.

وقد عزّز هذه الفكرة بالنسبة الى الكثيرين منهم جلاء الفرنسيّين عن لبنان وتساعُد فكرة القوميّة العربيّة التي كانت تعني لهم «أمّة اسلاميّة».

فالتجأوا طوعًا أو خوفًا الى من يدّعي حمايتهم، وشكّلوا أرضيّةً خصبةً لبروز هذا التنافر السياسيّ الذي أدّى الى انعزاليّة استغلّتها الطبقة السياسيّة.

العدد: ليست مقولة العدد حصرًا على الطبقة السياسيّة، إنّما هي فرضيّة قال بها عددٌ من المفكرين، منذ أيام ميشال شيحا والكتلة الدستورية، ولا تزال حتى الآن حربة نضال الطبقة السياسيّة تُضيفها الى عقدة الخوف لإغلاق مجتمعها، وبالتالي السيطرة عليه.

نجمت هذه الفرضيّة أي العدد عن مقارنة بين أنظمة الديموقراطيّة الغربيّة المبنيّة على العدد، والمجتمع اللبنانيّ. وهذه الفرضيّة تستند الى إحصاءات رقميّة، وإن كانت او لم تكن صحيحة، فهي تتجاهل مجتمعنا وتراثه والتطوّر الحاصل في العالم بالنسبة الى العدد. والجواب في ما سنورده:

١. لم يكن مجتمعنا اللبنانيّ يومًا إلاّ أقليّة في الأنظمة الدوليّة التي سادت المنطقة وذلك قبل الفتح الاسلاميّ. فهو قلّة في الامبراطوريّة البيزنطيّة وهو قلّة في العالم الاسلاميّ حتى آخر أيام السلطنة العثمانيّة.

٢. كلّ مرة استند المسيحيّون في لبنان الى العدد منذ حوادث ١٨٦٠م وفي حرب الجبل القريبة وقعت الكارثة.

فبرغم تفوّقهم العددي في الشوف عام ١٨٦٠م اندحروا أمام المجتمع الدرزيّ الأقلّ عددًا بكثير نظرًا لخصوصيّة هذا المجتمع وهي من خصوصيّة المجتمع اللبنانيّ إذ إنه يُمثّل جناحه.

فكلّ مرّةٍ يتحدثّون فيها عن العدد يسيرون عكس تاريخهم وعكس خصوصيتهم.

وأصل مشكلة هذا الطرح هو الجهل أو التجاهل عمدًا للخصوصيّة اللبنانية، ومحاولة تطبيق قواعد عربيّة وغربيّة على لبنان، تقديرًا لدراسات مدرسيّة أقلّ ما يُقال فيها إنها نظريّة.

٣. إنّ تطوّر الديموقراطية في العالم الحديث، أدّى الى المحافظة على حقوق **الأقلية تجاه الأكثرية**، وهذا هو المعنى الحديث للديموقراطية، وأكثر من ذلك الى صيانة حقوق الفرد تجاه الدولة.

وهذه هي غاية **شرعة حقوق الانسان** التي كان اللبنانيّ **شارل مالك** من واضعيها ومنظّميها.

وحول موضوع العدد نذكر أنّ نظام الناخبين الكبار في الولايات المتحدة الاميركية، يجعل بالإمكان اختيار أو انتخاب رئيس جمهوريّة للولايات المتحدة بعدد أصوات شعبيّة أقلّ من خصمه، وهذا ما حصل عند اختيار الرئيس الاميركي جون كينيدي.

هذا الاستمرار الداخليّ والخارجيّ دليل على حيويّة المارونيّة – السياسيّة وتمكّنها من التطوّر الى **صيغة عيش** والى **حضارة لبنانيّة**، والبرهان على ذلك وضع إحدى الطوائف الرئاسيّة في لبنان وهي الطائفة السنيّة منذ ضمّ ولاية بيروت عام ١٩٢٠م حتى الآن.

عند انتهاء الحرب العالميّة الأولى، وسلخ هذه المناطق من السلطنة، وإنهاء السلطنة والخلافة في اسطنبول على يد **مصطفى اتاتورك**[٢]، حوّلت الطائفة السنيّة في المدن انتماءها الى قوميّة عربيّة.

---

٢. مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ – ١٩٣٨): قائد تركي وُلد في سلانيك. مؤسّس الجمهوريّة وأول رئيس لها عام ١٩٢٣. قام باصلاحات اجتماعية، غيّر كتابة التركية من الحرف العربي الى الحرف اللاتيني.

وكان من نتائج الحرب العالميّة الأولى إنشاء دولة لبنان الكبير.

وأصرّ زعماء السنّة خاصةً في بيروت على مقاطعة حكومة لبنان الكبير، معبّرين عن رفضهم الإنتماء الى لبنان، وهكذا كان مؤتمرا الساحل (١٩٢٦).

ولكن برز تيّار آخر لدى السنّة، وخاصةً في البدء سنّة طرابلس، يرفض مقاطعة دولة لبنان الكبير.

هذا التيّار قديم العهد في طرابلس ودون إرجاعه الى **مصطفى آغا** بربر يجب أن يذكّر بالمراسلات السياسية بين مفتي طرابلس سماحة **الشيخ عبد الحميد كرامي** و**يوسف بك كرم** الذي يُعتبر البطل المثالي في لبنان.

وفي الوقت المتزامن مع مؤتمرات الساحل أي عام ١٩٢٦، قام الشيخ **محمد الجسر** من علماء السنّة في طرابلس بالمساهمة في حكم البلاد، فتولّى مجلس النواب عام ١٩٢٦، وكان قد ساهم فعليًّا بوضع الدستور اللبناني.

وعام ١٩٣٧ استلم رئاسة وزارة الجمهوريّة اللبنانيّة شابٌ صحافيّ من طرابلس هو **خير الدين الأحدب**.

وكانت عائلة سنيّة أخرى من صيدا أصلاً، لكنّها ذات نفوذ في بيروت، دخلت المسرح السياسيّ اللبنانيّ هي عائلة آل الصلح.

كان **رياض الصلح** قد اتخذ موقفًا مخالفًا لباقي الزعامات السنيّة في بيروت ولبنان.

فمنذ ١٩١٩ اعتبر أنّ القوميّة العربيّة والوطنيّة اللبنانيّة بمكنهما أن تتفقا لإنشاء وطن يتمتع بكامل مقوّمات السيادة.



رياض بك الصلح أوّل رئيس وزارة لبنان الاستقلال

وعلى هذا الأساس لعب دوْرًا بارزًا في حادثة مجلس إدارة جبل لبنان عام ١٩٢٠، الذي اكن يُطالب برفع الانتداب عن لبنان ونيله الاستقلال التام، وذلك قبل إعلان لبنان الكبير في أول أيلول ١٩٢٠.

وتابع رياض الصلح النضال على اعتبار أنّ لبنان قائمٌ بالواقع كبلد[٣].

وعلى هذا نشأت نظريّة استقلال لبنان كقضيّة قائمة بحدّ ذاتها، وقد نظّر لها كلّ من كاظم وتقي الدين الصلح مؤسّسي «حزب النداء القومي» المطالب باستقال لبنان مهما تكن طبيعة الكيان اللبنانيّ.

والتقت فكرة استقلال لبنان مع الفكرة الفينيقيّة التي كان قد نظّر لها ميشال شيحا على اعتبار أنّ البلد هو فينيقيا الجديدة ويمثّل «الجسر بين الشرق والغرب».

وهكذا نشأت الكتلة الدستوريّة التي فازت بانتخابات ١٩٤٣، ووضع رياض الصلح الميثاق الوطني الشهير غير المكتوب الذي حقّق الاستقلال عن الانتداب ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣.

وتمكّن لبنان المستقّل بفضل رياض الصلح من لعب الدور الرئيسيّ إقليميًّا، ومن ثمّ دوليًّا، لاستقلال سوريا، معتبرًا أنّ سوريا المستقلة تشكّل دعمًا للبنان المستقلّ، وهكذا نالت سوريا استقلالها في نيسان ١٩٤٥ أي بعد أكثر من سنة ونصف من استقلال لبنان.

---

٣. رياض بك الصلح: وُلد في صيدا عام ١٨٩٤ تدخّل في مؤتمر بوستدم مع كميل شمعون وحميد فرنجية عام ١٩٤٤ لتنال سوريا استقلالها ولجلاء الجيوش الأجنبية عن لبنان. اغتيل في عمان ١٩٥١ لأنه رفض توطين الفلسطينيين في لبنان، ويُقال خوفًا من تقسيمه.

وعندما أعلنت حكومة سوريا عام ١٩٥٠ إلغاء المصالح المشتركة بين لبنان وسوريا، اغتنم رياض الصلح – برغم معارضة سنيّة كبيرة – الفرصة، وتمّم الاستقلال السياسيّ باستقلال تجاريّ – اقتصاديّ.

وهكذا حقّق السنّي رياض الصلح الاستقلالية التامة.

استقلاليّة الأرض التي هي من أهمّ أهداف المارونيّة السياسيّة وقد حقّقها السنّي رياض الصلح برغم معارضةٍ كبيرةٍ من بعض الطبقة السياسيّة المارونيّة التي كانت تسعى للعودة الى لبنان الصغير لإقامة وطنٍ قوميّ مسيحي عليه، وقابلها معارضة سنيّة تريد دمج لبنان بسوريا أو بمحيطه العربيّ.

❑ لبنان صاحب رسالة ودعوة

تَمّت بفضل استقلال البلاد قفزةٌ نوعيّةٌ أخرى، فقد انضمّ لبنان كدولةٍ مستقلةٍ ذات سيادةٍ تامةٍ الى مؤتمر سان فرنسيسكو.

وكان اللبنانيّ شارل مالك من واضعي شرعة حقوق الانسان.

شارل مالك من طائفة الروم من الكورة في جبل لبنان، ولا حاجة للتعريف عنه وعن ثقافته العالية – الشاملة، وهو رائد نظرةٍ مستقبليّةٍ في منتصف القرن العشرين عن حرية الانسان المكملة لسيادة الأوطان، فلا وطن حرّ دون إنسان حرّ بحقوقه.

وهكذا نقل شارل مالك نظرية الحريّة – حريّة الفرد لأيّ دين انتمى من بقعة «دار الحريّة» الى مفهوم اوسع واشمل، ولا مبالغة اذا قلنا إنه عالميّ.

لبنان والأمم المتحدة وشارل مالك

٢٦/٦/١٩٤٥: لبنان يوقّع على ميثاق الأمم المتحدة في نهاية مؤتمر سان فرنسيسكو، ويصبح عضوًا مؤسسًا ومشاركًا في المنظمة الدولية.

٤/٩/١٩٤٥: مجلس النواب اللبناني يصدّق بالإجماع على ميثاق الأمم المتحدة.

١٧/١١/١٩٤٨: منظمة اليونسكو، التي تأسست في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥، تعقد احد مؤتمراتها العامة الأولى في لبنان.

١٠/١٢/١٩٤٨: لبنان يوقّع على الإعلان العالمي لحقوق الانسان ومواثيق حقوق الانسان، وكان قد شارك في وضعها شارل مالك.

١٩٥٠: لبنان يُنتخب عضوًا في مجلس الأمن.



أيلول ١٩٥٨ – أيلول ١٩٥٩: انتخاب لبناني (شارل مالك) رئيسًا للجمعية العامة للأمم المتحدة.

وبفضل شارل مالك تحوّل لبنان من واقع جغرافيّ - تاريخيّ الى مصدر مثاليّ على صعيد الحرّيات والتعايش، له رسالته ينشرها في العالم.

وكانت قد ساعدت على «نشر» هذه الرسالة في العالم الهجرة اللبنانيّة الى اميركا ومن ثمّ الى افريقيا، وهذه الهجرة وإن كانت قد ابتدأت عند المسيحيّين، وخاصةً الموارنة، ما لبثت في بدء القرن العشرين أن شملت فئاتٍ شيعيّة كبيرةً الى افريقيا.

وفي أذهان المفكرين كانت هذه الهجرة على أمثار أسفار الفينيقيّين، لا للكسب الماديّ وحسب، وإنّما للإنتاج الثقافيّ، أو بحسب قول سعيد عقل «نبني في كلّ مكان لبنان».

ولا حاجة لترداد دور المفكرين اللبنانيّين في العالم، ونكتفي بتذكير ما ناله جبران خليل جبران عام ١٩٩١ في الولايات المتحدة من تكريم.

ويجب الملاحظة أنّ هجرة «التجار» والمفكرين تبعها انتشار للمارونيّة، خاصةً على صعيد التنظيم الكنائسيّ المارونيّ.

ففضلاً عن الأبرشيّات المارونيّة التي تمتدّ حاليًا في اوستراليا وأنحاء القارة الاميركية كافةً، هنالك مدٌّ جديد للرهبنة المارونيّة.

وأصبحت المارونيّة حضارةً لبنانيّةً تمتدّ جذورها التاريخيّة الى ما قبل ظهور المسيحيّة والإسلام.

وكان هذا التحوّل النوعيّ من طائفةٍ أو مذهبٍ الى شعب.

وواكبت هذا التحوّل موجةٌ فكريّةٌ تجلّت مع شارل قرم بمجموعته الشعرية «الجبل الملهم»، ومن ثمّ مع يوسف السودا وسعيد عقل والأب بطرس ضو.

نقل هذا التطوّر المارونيّة السياسيّة الى فكرةٍ لبنانيّةٍ، ومن ثمّ الى فكرةٍ عالميّةٍ مبنيّةٍ على الحريّات الفرديّة بنوعٍ خاص.

وهذه الحريّات لها ملجأ هو «دار الحريّة».

وأثبتت الممارسات في «دار الحريّة»، خاصةً في الخمسينيّات، أنها تشكل مراحل أفكار، أكانت متشعّبةً أم متناقضةً، ولكنّها تُبحث وتناقش بحريّة. وأصبح بالتالي هذا الجوّ يشكّل خطرًا على محيطٍ عرقيّ او استبداديّ.

من هنا نشأت مجدّدًا فكرة هدم هذه الدار «دار الحريّة»، وتوافقت مصالح الخارج مع عوائق الطبقة السياسيّة في الداخل.

فهل فشلت المارونيّة السياسيّة؟ الجواب الواضح «لا»، لأنّ برغم أو بفضل هذه الحرب الطاحنة التي قامت على الموارنة والمارونيّة السياسيّة، والتي كانت غايتها تلاشي «لبنان – صنيعة الاستعمار» بعروبةٍ إسلاميّةٍ تسمح باستيعاب اللاجئين الفلسطينيين لحلّ المشكلة الفلسطينيّة، كان من شأنها بزوغ مقاومة لبنانيّة – مسيحيّة ومن ثمّ شيعيّة لبنانيّة ودرزيّة لبنانيّة وحتى بعد دخول السوريّين الى لبنان سنّية لبنانيّة.

الكلّ أخذ ينادي باستقلال لبنان تجاه جميع الغرباء. وأصبح اسم لبنان، ربما للمرة الأولى منذ إنشاء الجمهورية اللبنانية، القاسم المشترك لهذه الفئات كافةً.

فكما شعر المارونيّ في الجيل السابع بلبنانيّة تفرّقه عن باقي الطوائف المسيحيّة. هكذا عجّلت هذه الحرب الشعور بلبنان يميّز الطوائف كافةً التي تقطن أرضه عن باقي الطوائف في العالم. ومن شعائر المارونيّة

السياسيّة ان كل طائفة وإن حافظت على ميّزاتها الخاصة منذ اندمجت بحضارة قابلة ومتسعّدة للتطوّر وهي الحضارة اللبنانيّة.

لذلك يمكننا أن ننظر الى المستقبل بتفاؤلٍ حتى على واقعٍ نعيشه.

فهذه الأرض بقيت وستبقى رغم المحن أرضًا مميّزةً يمكن لكلّ إنسانٍ أن يعيش فيها حرًّا عزيزًا لأيّ دين أو عنصرٍ انتمى.

ويقتضي أن نترك هذه الحضارة تتطوّر ونساعدها على إكمال طريقها وانفتاحها فتأخذ مجراها.

هذا المجرى الطبيعيّ المرسوم لها، من «الزهرة بين الأشواك»، الى مؤسّسة دولة فخر الدين، الى «بوابة الشرق»، الى حضارة البحر المتوسط التي كثُر التكلّم عنها الآن،الى حضارةٍ عالميّةٍ بانت ملامحها اليوم ومبنيّة على حقوق الانسان، بل تجاوزتها الى الحقّ الانسانيّ.

هذا الحقّ الانسانيّ المركّز على حقّ كلّ انسان بحريّته الدينيّة والعقائديّة، وحقّه برأيه وبماله الى أيّ عرقٍ أو جنسٍ أو دينٍ انتمى.

ففي العصور الغابرة، حافظت المارونيّة السياسيّة على هذه الحريّة برغم ما أصابها ويصيبها من طعناتٍ داخليّة، ومن محاربةٍ ظاهرة أو مخفيّةٍ من محيطٍ ينبذ أفكار الحريّة هذه، وبنى أو يحاول ان يبني مجتمعه على ركائز الدين أو العرق، في ظروفٍ دوليّةٍ كانت مؤاتيةً له.

وكلّما ساورني الشكّ خلال السنوات السابقة، كنتُ أذهب الى نهر الكلب، وأنظر الى ما تركه محفورًا على الصخر، الفاتحون الذين مرّوا من هنالك، من أخبارٍ عن أمجادهم الغابرة، وأتذكر الحادثة التالية:

عام ١٩٤٤، وكنّا صبية في البترون، قرّرنا تحطيم «الطرة العثمانية» الموضوعة على واجهة سراي البترون.

وكم كانت دهشتي عظيمةً عندما منعني خالي من ذلك، وخالي كان من الرجال الشغوفين عقيدةً وفعلاً باستقلال لبنان، وعندما سألته عن السبب أجابني: «اتركوها فهي إثبات أنهم ذهبوا وشعبنا بقي».

هذا ما يذكّر بالكلمة المأثورة «وجدت في لبنان شعبًا وفي مصر رجلاً»، وقد قالها لامرتين في عهد محمد علي عزيز في مصر. فشعبنا قد بقي بفعل ميّزاته وخصوصيته في عهدٍ كانت تبدو هذه الخصوصية تسير فيه عكس مجرى التاريخ، وفكرةً مخالفةً وبالتالي مستضيعة لأفكار محيطها.

فكيف الآن والحضارة اللبنانيّة وصيغة عيشها الفريدة، برغم حرب استمرّت ست عشرة سنة، قد أصبحت مضربَ مثلٍ لمستقبل الكرة الأرضيّة.

فعلى الحضارة اللبنانيّة مواكبة التطوّر العالميّ، ومع المحافظة على تراثها، الانفتاح أكثر وأكثر على حضارةٍ مبنيّةٍ على حقّ الانسان الفرد، وبالأحرى الأقليّات، للعيش بحريّة وأمان.

فهرس

بيروت ١٩٩٦